**جامعة مؤتة**

**كلية الدراسات العليا**


# " جماليات المَكان الفنيّ فِي مُخْتَارَاتٍ مِنْ رِوَايَاتِ الرِّوائِيِّ التُّونِسيِّ " " الحَبِيب السَّالميّ"


**إعْدَادُ الطَّالِبِ**

**سَعِيدٌ مُصْطَفَى القَيسي**

**إشْرَافُ الأُستَاذِ الدُّكْتُور**

**مُحَمَّدٌ عَلي الشّوابكة**



**رِسَالَةٌ مُقَدَّمَةٌ لِكُلّيةِ الدّرَاسَاتِ العُلْيَا**

**اِسْتِكْمَالاً لِمُتَطَلَّبَات الحُصُولِ على دَرَجَةِ المَاجِسْتِيرِ**

**فِي الآدَابِ/ قِسمُ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ وَآدَابِهَا**

**جَامِعَةُ مُؤتَة, 2017م**



" جماليات المَكان الفنيّ فِي مُخْتَارَاتٍ مِنْ رِوَايَاتِ الرِّوائِيِّ التُّونِسيِّ " " الحَبِيب السَّالميّ"

سعيد القيسي 2017

**الآراء الواردة في الرسالة الجامعية**

**لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر جامعة مؤتة**

بسم الله الرحمن الرحيم

MUTAH UNIVERSITY
College of Graduate Studies

جامعة مؤتة
كلية الدراسات العليا

*نموذج رقم (١٤)*

# قرار إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالب سعيد مصطفى القيسي الموسومة بـ:

**جماليات المكان في مختارات من روايات الروائي التونسي ( الحبيب السالمي)**

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في **اللغة العربية.**

**القسم: اللغة العربية.**

| | التوقيع | التاريخ | |
|---|---|---|---|
| أ.د. محمد علي الشوابكة | | ٢٠١٧/٤/٤ | مشرفاً ورئيسا |
| أ.د. طارق عبدالقادر المجالي | | ٢٠١٧/٤/٤ | عضواً |
| أ.د. ماهر أحمد المبيضين | | ٢٠١٧/٤/٤ | عضواً |
| د. عمر الربيحات | | ٢٠١٧/٤/٤ | عضواً |

**عميد كلية الدراسات العليا**

**أ.د.محمد عبدالرحيم المحاسنه**

MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
sedgs@mutah.edu.jo dgs@mutah.edu.jo e-mail:
http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

مؤته – الكرك – الاردن
الرمز البريدي: ٦١٧١٠
تلفون: ٩٩-٠٣/٢٣٧٢٣٨٠
فرعي 5330-5328
فاكس 375694 ٠٣/٢
البريد الالكتروني
الصفحة الالكترونية

## الإهداء

إلى من كانوا عوناً لي في هذا الجهد, وعلموني المضي إلى الأمام, (والدي العزيز) الذي زرع التفاؤل والأمل في دربي, والذي حصد الأشواك عن دربي ليمهد لي طريق العلم, وإلى (والدتي الحبيبة) رمز الحب وبلسم الشفاء ذات القلب الناصع البياض التي سهرت وتعبت ودعت لي بالنجاح والتوفيق, وإلى القلوب الطاهرة الرقيقة سندي وعوني (أخواني وأخواتي) الأحباء....

إلى (أساتذتي الأفاضل) في قسم اللغة العربية, الذين قدموا لنا المعلومات القيمة والمساعدات والتسهيلات, ولا أنسى المرحوم الأستاذ الدكتور سامح الرواشدة إلى روحه الطاهرة السلام.

وإلى كل من وقف بجانبي ودعمني, ونصحني ودعا لي.

**سعيد القيسي**

## الشكر والتقدير

قال تعالى: (وقلْ اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) صدق الله العظيم.

إلهي لا يطيب الليل إلا بشكرك, ولا يطيب النهار إلا بطاعتك, ولا تطيب اللحظات إلا بذكرك, فلك الحمد والشكر يا ربي كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك على كُلِّ نعمة أنعمت علينا بها لا نحصي ثناء عليك.

يسرني أنْ أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور محمد الشوابكة ذلك الرجل الوقور, منارة من منارات العلم في هذا الزمان, الذي أفتخر بأنَّه أشرف على رسالتي, والذي وجهني وتحملني وصبر عليَّ طيلة فترة البحث, وأفادني بالنصح والتوجيه والإرشاد, وتقديم المساعدة, ولم يألُ جهداً في إنجاح هذه الدراسة وإخراجها إلى حيز الوجود, وما هذه الكلمات إلا غيضا من فيض في حقه, فجزاه الله عنا كل خير.

ويسعدني أيضا, أنْ أتقدم بالشكر والتقدير إلى الأساتذة الكبار في علمهم وعطائهم وقدرهم, أعضاء لجنة المناقشة؛ لتكرّمهم وتفضلهم بالمشاركة في مناقشة الرسالة, وإنْ شاء الله سوف آخذ بكل ملاحظاتهم بعين الأهمية والاعتبار؛ فهي النور الذي يضيء الرسالة ويغنيها ويثريها, فجزاهم الله خير الجزاء.

وأشكر أهلي وأصدقائي وكل من ساعدني وساهم في إنجاح هذا العمل.

أسأل الله العظيم أنْ ينفع بهذه الدراسة.

**سعيد القيسي**

## الفهرس


| المحتوى | الصفحة |
| --- | --- |
| الإهداء | أ |
| الشكر والتقدير | ب |
| فهرس المحتويات | ج |
| الملخص باللغة العربية | د |
| الملخص باللغة الإنجليزية | هـ |
| المقدمة | 1 |
| التمهيد | 5 |
| **الفصل الأول: ثنائية المغلق والمفتوح** | **15** |
| 1.1 إضاءة حول المكانين المغلق والمفتوح | 15 |
| 2.1 المكان المفتوح وتجلياته | 16 |
| 3.1 المكان المغلق وتجلياته | 39 |
| **الفصل الثاني:المكان وعلاقته بالشخصيات وتأثير كل منهما في الآخر** | **58** |
| 1.2 المكان والشخصيات | 58 |
| 2.2 تأثير المكان في الشخصيات | 59 |
| 3.2 تأثير الشخصيات في المكان | 83 |
| **الفصل الثالث: جماليات التشكيل الفني للمكان** | **92** |
| 1.3 جمالية اللغة السردية في توظيف المكان | 92 |
| 2.3 جمالية اللغة الموظفة في (الوصف– والسّر– الحوار) | 107 |
| **الخاتمة** | **121** |
| **المصادر والمراجع** | **123** |

## الملخص

**"جماليات المكان في مختارات من روايات الروائيّ التونسيّ "**

**"الحبيب السّالميّ"**

**سعيد مصطفى القيسي**

**جامعة مؤتة، 2017**

هدفت الدّراسة إلى: الكشف عن جماليات المكان في روايات الروائيّ الحبيب السالميّ, في رواياته الخمس, وبينت الدراسة أنواع الأمكنة عنده, وتناولت التشكيل الفني لتلك الروايات, وعلاقة الشخصيّات بالمكان, وقد اعتمدت الدراسة على المنهج (الوصفيّ التحليليّ).

اشتملت هذه الدراسة على مقدمة, وتمهيد, وثلاثة فصول وخاتمة, وثبت للمصادر والمراجع.

أمّا المقدمة تضمّنت: مشكلة الدراسة, وأهميتها, وأهدافها, ومنهجيتها. أمّا التمهيد فتضمّن أهم المسائل النظرية التي كتبتْ عن المكان من حيث, مفهومه لغة واصطلاحاً, وأنواعه, وأهميته, وكيفية قراءته. أمّا الفصل الأول فتناول ثنائية المكان المغلق والمفتوح, ودلالات كل منهما.

وتناول الفصل الثاني علاقة المكان بالشخصيّات وتأثير كل منها في الآخر, أمّا الفصل الثالث فتناول المكان وجماليات السرد وأساليبه من زوايا عديدة أهمها: اللغة الموظفة في السرد والحِوَار, والوصف ووظائفه, والانزياح في تقديم المكان, والتناصات ودلالاتها.

وانتهت الدراسة بخاتمة تناولتْ أهم النتائج التي توصلتْ إليها الدراسة, فكان من أهمها:

قلبَ السّالميّ الدّلالة في تقديمِ المكانين المغلق, والمفتوح, فدلّ المفتوح أحياناً على الجمود والضيق, والعدائية للبشر, ودلَّ المغلق أحياناً على الانفتاح والتطور, وسريان الأفكار, وخلق السالمي علاقة تأثيرية بين الأماكن وساكنيها, وحوَّل تلك العلاقة من جامدة إلى متحركة , واتكأ السالمي على الوصف بأنواعه الذي كان بمثابة أداة طيعة لأسلوبه, وفق السالمي في كثير من توظيفاته في أنسنة المكان , وقد لجَأ إلى التباين الحضاري للمقارنة بين الحضارتين العربية والغربية.

**Abstract**

**Beawty of setting in selechons from the tunision novelist**

**“ Alhabeeb Alsalmi “**

**Saeed Mustafa alqaisi**

**Muota university 2017**

Imphicahons The study ended with a conclusion the dealt with the most important results it has reached : Alsalmi inverted ne vision introducing the two sething closed a open where the open somehme indicated adversity and violenece while the closed somehmes indicated develompevt broad –mindedness running ideas.

Alsalmi created a relahon between places there residents where he depended on desnphon with all its types which was a tool that obeyed his style tle also resorted to the cultural dimension to compare between the western a eastern (Arabia) cultores.

The discovery amied to reveal the beauty of thersething in the novels of the dear novelist Al-sami in his novels and it showed his different types of setting and dealt with the technical conhgurahon of characlers those novels in addihon to the relashionship of characlers with setting the study depended on descriphive analyhcal method This study inclved an inhrodvchion preface three chapters soureces and relerences As for the preface it include the most important theorehicl issues that wrote about the setting in terms of its concept using language a idiom its types important and the way to read it The introduchion inclveded the proplem of the study its important aims and method ology As for the first chapler it dealt with both closed a open setting and the implication of each The second chapter dealt with the relashonshipe between the setting a that characlers and the effect of each on the other .As for the third chapter it dealt with the setting from different angles most important the language used In narrahire and dialgove descriphon its use displacement introdvcing the setting interlexteahies a their .

## المقدمة:

الحمد لله رب العالمين, والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وبعد:

فقد خَطت الرواية العربيَّة خطواتٍ كبيرة؛ لمواكبة التطورات, والاستحداثات التي طَرأت على الرواية في منبعها الغربي, وقد تبلورت شكلياً, ومعنوياً إلى أنِ استقرت إلى حدٍ كبيرٍ مقارنة بالعقود الماضية, فبدأ التّوجه في الدّراسات إلى البنية الروائية, ومن أهم البنى التي يتشكل منها الفضاء الروائي: **المكان** حيث إنَّه حَظِيَ باهتمام الدّارسين؛ لما له من مدلولات قيمة ومهمة داخل العمل الروائيّ, فلم يعد المكان الروائيّ كما كانَ عليه في الماضي مجرد إطار تدور فيه الأحداث, بل نحا بت الروائيون مَنْحىً آخر حتى أصبح هو الهدف في بعض الأعمال الروائية, كما هو الحال في بعض روايات نجيب محفوظ, وغيره من روائيين؛ ولذلك ارْتَأت الدّراسة أن تظهر جمالياته, ودلالاته, وتتعمقُ فيه أكثر؛ عند الحبيب السالمي؛ لبيان دوره الجديد في الرواية الحديثة.

فالمكان هو: عنصر من عناصر العمل الروائيّ, لا يقوم إلّا عليه, إذْ إنَّه لا يمكن لأحداث تجري, وشخصيات تنطلق خارج الحدود المكانية. وتكمن أهمية هذه الدراسةُ, بأنَّها الدراسة الأولى التي تناولت المكان عند السَّالميّ, إذ إنَّ الباحث على حدود علمه, لمْ يجدْ أيّ دراسة للمكان عند السَّالميّ سوى مقالة مقتضبة على شبكة الانترنت لم تتجاوز الثلاث صفحات, ولا تُشكِّل دراسة جادة تتناول مفردات المكان, وأنواعه, ووظائفه, ودلالاته, إذْ تحدثت عن رواية ((روائح ماري كلير)), لكن هذه الرواية لم تدرج في هذه الدراسة بالتحليل والمتابعة.

وتسعى الدراسةُ, إلى الإجابةِ عن مجموعةٍ من الأسئلة هي:

1. هل كان للمكان أثر في بناءِ الشخصياتِ في روايات السَّالميّ ؟
2. ما هي الوظيفة التي استطاع المكان أنْ يكتسبها من السّرد ؟
3. هل قدَّم السَّالميّ رؤية من خلال المكان؟
4. ما هي أنواع المكان عند السَّالميّ؟ وهل الأمكنة المغلقة تدل دائماً على الانغلاق والجمود, والمفتوحة تشي بالانفتاح والتطور؟
5. ما أثر المكان في تشكيل الجوانب النفسية للشخصيّات الروائية؟ وما دور الإنسان في إضفاءِ البناء المكاني للرواية ؟

6. كيف قامت اللغة الشعرية بتقديم المكان وجلاء جوانبه المادية وكشف دلالاته؟

وكان من أهم الدوافع للدراسة؛ الإجابة عن الأسئلة السابقة, بالإضافة إلى عدم وجود دراسة تناول المكان بشكل خاص, عند الحبيب السالمي, حيثُ كان التركيز في الكثير من الدراسات على جوانب أُخرى داخل الفضاء الروائي غير المكان, مثل الشخصيات والبنية الزمنية, ومن الدوافع أيضاً؛ تقديم دراسة جادة تتناول المكان, وتفصِّله, وتكون معيناً للدارسين في فهم المكان الروائي, وَتضاف إلى تلك الدراسات الخاصة بالمكان, وتطمح أيضا لدراسة المكان العربي من خلال روايات الحبيب السَّالميّ كنموذج.

لقد اعتمدت الدراسة على المنهج ((**الوصفي التحليلي**)) وربما تلجأ الدّراسة إلى الاعتماد على بعض المناهج الأخرى على حسب ما تقتضيه متطلبات الدراسة, كالمنهج النفسي, والاجتماعي, والنقد الثقافي الخاص بروايات اللقاء الحضاري بين الشرق والغرب, ولا سيما فرنسا, حيث إنَّ المنهج الوصفي يحلل النصوص, ويوصفها وهذا ما يخدم الدراسة.

ومن أهم الصعوبات التي واجهت الدّراسة: قلة المصادر والمراجع, الخاصة بالمكان الروائيّ, حيثُ إنَّ الكثير من الدراسات كانت تعد المكان مجرد إطار تدور فيه الأحداث, وتتحرك فيه الشخصيات, ليس أبعد من ذلك, وَمِنْهَا صعوبة جمع البيانات حيث إنَّ الباحث تنقل إلى أكثر من مكتبة, ومكان للوصول إلى المعلومات المطلوبة التي تخدم الدراسة, ناهيك عن صعوبةِ بعض الدراسات المترجمة التي اختصت بالمكان, والحاجة إلى التفكيرِ فيها ملياً, مثل : كتاب "درجة الصفر في الكتابة" لرولان بارت وغيره من الدراسات المترجمة.

أمّا بالنسبةِ للدّراسات السابقة, فإنَّ الباحثَ على يقينٍ, إلى حدٍ كبيرٍ, أنَّ هذه الدراسة هي الأولى التي تناولت روايات السَّالميّ, وخاصة جماليات المكان فيها, إذ لم يعثر الباحث بعد طول تمحيص, وتنقيب, واستفسارات على أي كتاب أو بحث عن المكان عند السَّالميّ, سوى مقالة مختصرة مقتضبة على الإنترنت أشارت إليها الدراسةُ بداية المقدمة, وهي بعنوان ((**روائح ماري كلير**)) بيد أنَّ ثمَّة دراسات عامة ومقالات متنوعة, تتحدث عن المكان بوصفه ركناً رئيسياً من أركان الرواية, وثمة التفاتات أخرى

إلى الكاتب في حياته وبعض رواياته, دون التطرق إلى إشكاليةِ المكان, وستسجل الدراسة بعض هذه الدراسات في ثبت المصادر والمراجع, ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ تلك الدراسات لا ترتبط ارتباطاً وثيقاً مباشراً برسالتي فيمكن الاستغناء عن الكثير منها.

وقد اعتمدت الدّراسة على مجموعةٍ من المصادرِ والمراجع, من أبرزها:

روايات السَّالميّ الخمس التي تناولتها الدراسة وهي: **( أسرار عبدالله– جبل العَنْز– عشاق بيَّة– صورة بدوي ميت– نساء البساتين)** التي شكَّلتْ محوراً رئيسياً من محاور الدراسة, وقد اخترتُ هذه الروايات دون غيرها؛ لأنَّها لم تجعل فضاءَها المكانيّ الغرب كما هو الحال في رواياته الأخرى. أمّا الدّراسات ذات العلاقة بجوهر الدراسة فكثيرة منها: المكان في الرواية العربيَّة لغالب هلسا, وجماليات المكان في الرواية العربيَّة لشاكر النابلسي, وجدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية لعبد الحميد المحادين, وغيرها الكثير من الدراسات التي ستدون في ثبت المصادر والمراجع.

وتتألَّف هذه الدّراسة من مقدمةٍ وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة.

**المقدمة:** عرضتُ فيها بإيجازٍ الأهداف, والدوافع, والدراسات السابقة, والصعوبات, وأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها الدّراسة.

**التمهيد:** وعرضتُ فيه أبرز المسائل النظرية المُتَعلِّقة بالتّشكيل الفنيّ للمكان زيادة على دلالاته العامة.

يتناول **الفصل الأول** أنواع المكان من حيث الانغلاق والانفتاح, ودلالات ذلك في سياق النصوص المختارة.

أما **الفصل الثاني** فيتناول علاقة المكان بالشخصيات كتأثير المكان في الإنسان, وتشكيل بنيته الجسدية والنفسية, وحاول الفصل الالتفات إلى دورِ البَشَر في تغيير الأمكنة على وفق نفوسهم واعتقاداتهم.

ويتضمَّن **الفصل الثالث :** جماليات التشكيل الفني للمكان في الروايات المختارة من زوايا متعددة, منها: شعرية اللغة, وأنواعها الموظفة في السرد, والحوار, والوصف.

أما **الخاتِمَةُ** فقد أوجزت فيها أبرز النتائج التي انتهت إليها الدراسة.

وفي النهاية لا يفوتني الشكر لكل من ساعدني وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور محمد الشوابكة, الذي أفتخر بأنَّه أشرف على رسالتي وأضاء لها الطريق منذ أنْ كانت

مجرد فكرة, وقدَّم كل ما يحتاجه الباحث من دراسات, وتوجيهات ومعلومات تخدم هذه الدراسة فجزاه الله خير الجزاء, كما أتقدم بالشكر لأهلي؛ لمساعدتهم لي وتشجيعي لتقديم ما هو أفضل على صعيد الدراسة, كما أتقدم بالشكر لمكتبة جامعة مؤتة المتمثلة بموظفيها الكرام لتقديمهم ما يحتاجه الباحث من مصادر ومراجع, ولا يفوتني أنْ أشكر أصدقائي وكل من ساندي, فجزاهم الله كل خير.

وآخر دعوانا أنْ الحمد لله رب العالمين.

**التمهيد:**

يعيش الإنسان في هذا الكون ضمن إطارين أساسين هما: المكان, والزمان, ففيهما ينمو الجنس البشري ويتطور. والمكان أقدم من الإنسان بوجوده وكينونته, وبينهما علاقة جدلية؛ فالإنسان يؤثِّر في المكان, ويحوله إلى أشكال مختلفة حسب حياته, ووفق ثقافته, ومع هذا فإنَّ المكان أيضاً يقوم بدوره بتشكيل الإنسان, وفرض سلطته عليه, ويعتمد ذلك على طبيعة هذا المكان وقدسيته.

إنَّ المكان على عكس الزمان ثابت نسبيّاً وفي ثبوته واحتوائه للأشياء الحسية المستقرة فيه يُدْرَكُ إدراكاً مباشراً؛ يرجع ذلك إلى قوة الحساسية التي تشمل الحواس الخمس, فهو بذلك يكون على عكس الزمان الذي يُدْرَكُ إدراكاً غير مباشر من خلال الفِعْل.

إنَّ وجود الإنسان في المكان؛ أدى إلى تعضيد العلاقة بين تلك العلاقة التي أخذت بالتنامي حتى أصبح المكان واحداً من القضايا التي يخترقها الإنسان, بالبحث؛ بغية التعمق فيه, وتمام إدراكه؛ وترتب على ذلك كثرة الدراسات التي عُنيت به في مختلف المجالات, وكان بعضها مقتضباً, وبعضها جاء بإسهاب حسب طبيعة تلك الدّراسات, وهذا يدل على الأهمية الكبرى التي بدأ المكان الروائيّ يَتَبَوَّأها في الدّراسات الحديثة في النقد الأدبي الذي حاكم تلك الدّراسات, وميز غثّها من سمينها.

يُمثل المكان الروائيّ, عنصراً هاماً من عناصر السرد الروائيّ مما أدى إلى: تنوع الدّراسات التي اهتمت بالمكان في العمل الروائيّ, وتقسيم المكان حسب السلطة التي تخضع لها الأماكن, وبذلك يكون المكان أعطي بعداً فلسفياً وهو ما يفصله, ويحدده عن باقي العناصر على الرغم من أنَّ إدراكه لا يتم إلّا من خلال الفضاء الروائيّ بكل عناصره, وهذا يدلّ على أنَّ للمكان دلالات حسيّة, ومعنوية, ويقدم من خلاله رؤىً كثيرة.

وعلى الرغم من كثرة ما كتب حَوْل المكان نظريّاً وتطبيقيّاً؛ فإنَّ كثرة النصوص الأدبيّة وتنوّعها يتطلب دراسات تُحلِّل هذه المسألة. وثمَّة نصوص كثيرة جداً لم تحْظَ بالاهتمام من هذه الزاوية, ومن هُنَا تأتي هذه الدّراسة في تخصيص روايات السَّالميّ لتسدَّ النقص مع تواضع هذه الدراسة.

**مدخل إلى المكان الروائيّ.**

**أولاً المكان في اللغة:**

" المكان– الفضاء, والفضاء: ما اتسع من الأرض و الخالي من الأرض, من الدار: ما اتسع من الأرض أمامها " [1].

والمكان أيضاً هو" المنزلة يقال هو رفيع المكان والموضع, جمع أمكنة " [2] أورد ابن منظور في كتابه" لسان العرب" لفظ ((المكان)) تحت جذر ((كَوَنَ)) " من الكون– الحدث, وأيضاً وردت تحت جذر ((مكن)), فقال: والمكان الموضع, والجمع أمكنة, وأماكن جمع الجمع.

لعل تسمية المكان هي أول السُبل إلى بناء المكان, فتسمية المكان في الرواية, تحيل القارئ إلى المكان الذي يحمل الاسم نفسه في الواقع, وإنْ كان ليس هو المكان نفسه في الواقع, ومن هُنَا تنشأ المفارقة؛ لأنَّ التسمية محض وسيلة أولية باهتة, من المكن أن تقوم بربط المكان الروائي الخيالي بالمكان الواقعي, وهذه الإحالة أشارت إليها بعض الدراسات.

ولسيزا قاسم مفهومها الخاص بالمكان وتعطي له سعة خاصة فتقول: " المكان ليس حقيقة مجردة وإنّما هو يظهر من خلال الأشياء التي تشغل الفراغ أو الحيز, وأسلوب تقديم الأشياء هو الوصف." [3] كما أنَّها تقول: حَوْل تشكيل المكان: " تقوم دراسة المكان في الرواية على تشكيل عالم المحسوسات التي قد تطابق عالم الواقع وقد تخالفه. " [4] والمقصود من ذلك أنَّ الروائيّ عندما يخلق المكان الروائي, يكون متأثراً بالمكان الواقعي, ولكن هذا التأثير قد يكون مطابقاً لهذا الواقع وقد يخالفه أيضاً.

---

1 – المعجم الوسيط, إبراهيم مصطفى وآخرون, المكتبة الإسلامية, ج1, د.ت, د .ط, ص 86.

2 – ابن منظور, لسان العرب, مج6, دار صادر, بيروت– لبنان, ط1, 1997م, ص83.

3 – ينظر: سيزا قاسم, بناء الرواية: دراسة لثلاثية نجيب محفوظ, دار التنوير للطباعة والنشر, بيروت– لبنان, ط1 , 1985م, ص102.

4 – قاسم, بناء الرواية، ص103.

وأرى أن المكان الروائي ليس من الضروري أن يرتبط بالمكان الواقعي؛ لأن المكان الروائي يشيده خيال الروائي, فمثلا عمان عاصمة المملكة الأردنية, هي ليست واقعة أنما فنية لا ترتبط بأي شكل في الواقعية وقس عليها باقي الأمكنة الفنية.

والمكان أيضاً: هو الحيز والفضاء الذي تجري فيه الأحداث, وتتحرّك فيه الشخصيات, وتقدم من خلال رؤى متنوعة يعتمد ذلك على نوع الرواية سواء كانت واقعية, أو بوليسية, أو خيالية...الخ فالمكان شبكة من العلاقات والرؤى, ووجهات النظر التي يتضامن بعضها مع البعض الآخر؛ لتشيد الفضاء الروائيّ الذي ستجري فيه الأحداث." [1]

إنَّ المكان يمثل" العمود الفقري الذي يربط أجزاء العمل مع بعضها البعض [2], وهذا يعني أنّ المكان هو الذي ينظم العمل الروائيّ, فلولا وجود المكان لم يكنْ الزمان حاضراً, ولا حيِّزٌ لشخصيّات تجري داخله, ولا مجال للأحداث أنْ تتنامى, فالمكان يمثل عموداً فقريّاً يلملم أجزاء العمل الروائيّ فيحويها, ويضمها وينظمها.

عرضت الدّراسة مفهوم المكان لغة, ثم مفهوم المكان في بعض الدّراسات التي خصت المكان, وقد استدلتْ الدّراسة على أهمية المكان في الفضاء الروائيّ, وسوف تعرض الدّراسة جزءاً ميسراً منها تمثل مدخلاً لباقي الأهميات.

إنَّ المكان جزء لا يتجزَّأ من الفضاء الروائيّ, ولا يمكن أنْ يشيد الفضاء الروائيّ دون كينونة المكان لما له من أهمية ومدلولات مهمة داخل هذا الفضاء, " ومازالت مقولة المكان ومفاهيمه حيّة, ومتجددة ليس لما جاء فيها من آراء ابتداء " بل لأنَّ الفضاء الروائيّ لا يقدّم إلا بوجود المكان " [3] فالمكان يفتح الآفاق لأماكن أُخرى تتوجه إليها الأنظار داخل الرواية الواحدة. فالمكان يشكل صورة مرئية يستشفها القارئ البصير.

---

1 – حسن بحراوي, بنية الشكل الروائي(الفضاء– الزمن– الشخصية), المركز الثقافي العربي, بيروت, 1990م, ص32.

2 – امتنان عثمان الصمادي, زكريا تامر والقصة القصيرة, المؤسسة العربيَّة للدراسات, عمان, 1995م, ص171.

3 – ياسين النّصير, إشكالية المكان في النص الأدبي, دار الشؤون الثقافية العامة, العراق– بغداد, د.ط, دت, ص15.

بمعنى أنَّ المكان الروائيّ يخلقه الروائيّ بصورة شبه مرئية من خلال قرائن وأهمها **(الوصف)** الذي يُظهر المكان ويصوره صورة فتغرافية من خلال ذكر التفاصيل الصغيرة لذلك المكان.

والمكان الفني " يحدد لنا الإطار العام الخالي من التفاصيل, وهو الإطار الذي كانت تجري فيه الأحداث الروائية " [1] فالمكان يحدد المتغير الذي تجري فيه الأحداث داخل النص الروائيّ ويكشف عنها, وقد يأتي إلى تأزّمها عند انتقال البطل من مكانٍ إلى آخر بغية البحث عن عالم جديد.

فالروائيّ " ينقل بالكلمات ما ننقله نحن في الحديث العادي بالكلمات, ونبرة الصوت, والتردد والتعبير, لغة الرواية" [2]، وهذا الخلق بالكلمات يكون عن طريق الحِوَار الذي يدور بَيْنَ الشخصيّاتِ وفي مكان ما وحتى هذا الحِوَار والمكان أيضاً هو مخلوق بالكلمات؛ للإيهام بالواقع كالمشاهد والوقفات الوصفية تلك الأحداث والأماكن والحوارات.

فالمكان الروائيّ يفقد حدوده الجغرافية المحددة, فيظهر بما يضفي عليه الفنان من رؤى, ويصبح جدليّاً قابلاً للمحاورة, فالروائي يوظف المكان ويستثمره استثماراً يفضي إلى جماليات النص الروائي ويجعله محملاً بالفكر والرؤى.

يعد المكان وسيلة من وسائل قراءة العمل الروائيّ, ويشكّل محوراً من محاوره الرئيسية, فهو مكان غير واقعي بالفعل إنَّما مكانٌ متخيل لهُ أبعاده الخاصة, ويحتاج ذلك المكان إلى الانفتاح على أماكن أخرى تجعله الرواية يَنْبضُ بالحركة, ويفتح الآفاق لرؤى جديدة ينطلق من خلالها القارئ إلى ما وراء تلك الأمكنة. إنَّ المكان " في حالات كثيرة ليس حيزاً جغرافياً فقط, فهو أيضاً البَشر, والبَشر زمن معين" [3] وهذا يدل

---

1 – محمد خضر, الحكاية الجديدة, دار أزمنة للتوزيع والنشر, عمان– الأردن, د.ط, 1995م, ص94.

2 – حميد لحمداني, بنية النص السردي منظور النقد الأدبي, المركز الثقافي العربي, بيروت–الدار البيضاء, الطبعة الأولى, 1993م, ص67.

3 – عبد الرحمن منيف, سيرة مدينة, المؤسسة العربيَّة للدّراسات والنشر, بيروت, ط 1, 1994م, ص5.

على الارتباط الوثيق بين البشر وأماكنهم؛ فالمكان قدْ يعني البشر القاطنين فيه في زمن وحقبة معينة مما يدل على العلاقة التبادلية بين الزمان والمكان والبشر, فلكل منهم سطوته على الآخر.

واللغة الروائيّة تعمل على الاستعانة بالمكان الواقعي وتضفي عليه دلالات جديدة في علاقته مع الإنسان, ويكون لشعريتها دورٌ كبيرٌ في إضفاء جمالية خاصة عندما يستخدم المجاز, والاستعارات في لغة المكان.

وتتميز أيضاً تلك الشعرية بأنْ تزخر بأسلوبها الأدبي واللغوي, وهو الأسلوب البياني, منْ يَجعل هذا الأسلوب مندمجاً في ذلك المكان والعمل الروائيّ كافة مما يضفي عليه جمالية ويحمّله بدلالات متنوعة, وتلك الدلالات " تتسع وما يربط بها من سياقات نفسية, واجتماعية, عندما يتحول المكان إلى مكان مجازي " [1]؛ عندها تزداد أهميته ويصبح له كينونة خاصة أكثر من ذي قبل.

وكلما كانت القصة منحرفة والمكان فيه منزاحاً عن الواقع كانت أكثر جدلاً وَأَجْزَلَ رؤى: " فإنَّ انحراف الرواية بأحداثها ومكانها وأشخاصها يحقق للروائيّ التجربة الأغنى, والأكثر شمولية, وموضوعية. " [2] إنَّ انحراف المكان يمنحه أهمية كبيرة يحقق للروائيّ أهدافاً كثيرة من أهمها: الخروج من قالب الرواية التقليدية القديمة والانطلاق إلى عالم روائيّ خاص, ويعطي لروايته جماليه وجاذبيَّة للقارئ ليتأمل تلك الأماكن ويفكر في الرؤية التي تحملها؛ حيث إنَّ المكان يبلور النص الروائيّ ويسهم في خلق هالة حَوْل ذلك النص تسمح بتعددية التأويلات التي يحملها ذلك المكان "عندما يصبح له ذاكرته الخاصة, وللذاكرة أيضاً مكانها. " [3]

---

1 – إبراهيم الجنداوي, الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا, دار الشؤون الثقافية, العراق– بغداد,ط1 , 2001, ص172.

2 – سليمان الأزرعي, دراسات في القصة والرواية الأردنية, دار ابن رشد للنشر والتوزيع, عمان– الأردن, ط1, 1985م, ص155.

3 – جمال الدّين الخضور, زمن النص, دار الحصاد للنشر والتوزيع, سوريا–دمشق, ط 1 , 1995 ص148.

وللمكان أهمية كبيرة أيضاً " تظهر في مدى مساهمته في تكثيف الدّلالة وتوضيح رؤية المؤلف, والتعبير عن العلاقات, والتوترات, التي تحدث عند اتصال الشخصيّات بأماكن الأحداث "[1] فاتحاد المكان مع بقية عناصر السّرد يؤدي إلى تكثيف وتنويع الدّلالات التي يحملها المكان, فالعلاقة التكاملية بَيْنَ تلك العناصر خاصة الشخصيّات تضفي عليه دلالات جديدة ومغايرة عكس المتوقع منها, والمكان في الرواية " سواء أكان مُغْلقاً أم مفتوحاً يستطيع أنْ يفسر كثيراً من الدّلالات الاجتماعية والنفسيّة وإحالتها إلى عالم رمزي أو واقعي متخيَّل " [2] بمعنى أنَّ المكان يفسر نفسيات ساكنيه, وعاداتهم, وحتى دياناتهم, وآراءَهم, ومعتقداتهم, ويعكس الواقع في الكثير من الأحيان لكن في قالب خيالي.

إنَّ المكان الروائي يجعل بقية العناصر مندمجة, تحقق الغاية والهدف المنشود والرؤية المطلوبة من وراء ذلك العمل فلا بد للبحث, والتنقيب عن تلك التداخلات, والترابطات لفهمها والوصول إلى الرؤية المنشودة.

والمكان أيضاً هو الذي يجعل أحداث الرواية بالنسبة للقارئ شيئاً محتمل الوقوع ويوهم بواقعيتها فهو يجعل من تلك الأحداث واقعية, ويوهم القارئ بصدق تلك القصة ويجعله يندمج في روحها المستترة, فالقُراء ركن أساسي من أركان العمل الأدبي, فلا بد من اشتراكهم في ذلك العمل؛ لأنَّه عبارة عن رسالة موجهة لهم تحاول أنْ تغير من واقعهم, وتغير خلقه, وصناعته, " وتعتمد الروايات على تقنية الرسائل التي يصفها السارد التي تتيح له الانتقالات المفاجئة والتّضادات " [3] فالمكان يمثل ثيمة مهمة يستطيع الروائيّ استغلالها وتقديم رؤيةٍ من خلالها.

---

1 – أمينة بوطولة, جماليات المكان الدّرامي في النص المسرحي الجزائري, رسالة ماجستير في الأدب, تحت إشراف الأستاذة فتحية الزاوي, 2016 الجمهورية الجزائرية, جامعة وهران, أحمد بن بلة, كلية الآداب, 2016/1/19م, ص101.

2 – محمد عز الدين التازي, الكتابة الروائية في رفقة السلاح والقمر, دار الشؤون الثقافية, بغداد, دار النشر المغربية, دت, دط , ص73.

3 – شكري عزيز الماضي, الرواية العربية في فلسطين والأردن في القرن العشرين, وزارة الثقافة– مطبعة السفير, عمان– الأردن, 2014 , ص 25.

ميزتْ الدّراسات المكانية عدة أنواع للمكان الروائيّ ولكل منها دلالاته الخاصة التي تَعْمل على تقديم منظورٍ روائيّ خاصا, ومن تلك الدّراسات التي تناولت المكان وأعطته تسميات خاصة دراسة غالب هلسا في المكان فقد ميز غالب هلسا بين ثلاثة أنواع للمكان بحسب علاقة الرواية وهي:

**1- "المكان المجازي:** وهو الذي نجده في رواية الأحداث وهو ساحة لوقوع الأحداث لا يتجاوز دوره التوضيح, ولا يعبر عن تفاعل الشخصيّات, والحوادث, ويتجاوز الواقع.

**2- المكان الهندسي** : وهو الذي تصوره الرواية بدقة محايدة تنقل أبعاده البصرية فتعيش مسافاته, وتنقل جزئياته من غير أنْ تعيش فيه.

**3- المكان بوصفه تجربة**, تحمل معانات الشخصيّات, وأفكارها ورؤيتها للمكان وتثير خيال المتلقي, فيستحضره بوصفه مكاناً خاصًّاً"([1]).

ميَّز هلسا بَين تلك الأماكن حسب الدّور الذي تقدمه للمتلقي داخل العمل الروائيّ فبعض هذه الأماكن مجرد مكان لوقوع الأحداث لا يقدم من خلاله رؤية, ولا يؤثر في الشخصيّات, والمكان الهندسي هو الذي يصفه الروائيّ ويقدِّمه على أنَّه مكان واقعيّ من خلال (الوقفات) والمكان الآخر الذي يعبّر عن عالم الشخصيّات وأفكارها تتأثَّر به, ويؤثِّر فيها.

أمّا شاكر النابلسي فقد ميز بين عدة أنواع للمكان أهمها[2]:

1- المكان الإنبائي الافتتاحي: وهو المكان الذي يقوم بتقديم الأمكنة التي تليه ويخبر عن طبيعتها.

2- المكان الصوتي: وهو المكان الذي تبرز جماليته من خلال الصوت فقط دون باقي مظاهره الجمالية.

3- المكان الحنيني: هو المكان الذي يذكرنا بالماضي.

4- المكان الثابت: هو المكان الذي يأتي مزجاً بين المكان الحاضر ومكان الذكرى وغيرها لا يتسع المجال لذكرها.

---

[1]- غالب هلسا, المكان في الرواية العربية, دار ابن هاني, دمشق, د.ط, 1984 , ص8-9.

2 - شاكر النابلسي, جماليات المكان في الرواية العربية, المؤسسة العربيَّة, بيروت, ط 1, 1994م, ص15-16-13.

وذكر جاستون باشلار المكان الأليف" هو المكان الذي ولدنا فيه أي بيت الطفولة الذي مارسنا فيه أحلامنا, وتشكل فيه خيالنا " [1] فإنَّ لذلك المكان دلالة مهمة حيث يرمز إلى المكان الأصلي الذي نشأنا فيه فإنَّ له قدسية خاصة.

ومنها أيضاً: " الأمكنة المركزية, وهي التي تقع فيها أحداث كثيرة, وتقوم بدور مهم في الرواية, يتجلى في التأثير المتبادل بينها وبين الشخصيّات من جهة وبين الأحداث من جهة أخرى, وهي تشكل مساحة واسعة من النص "[2].

أما الدّراسة فقد تناولت المكانين المفتوح والمغلق؛ لأنها الأكثر بروزاً في روايات السالمي **فالمكان المفتوح :** هو عكس المغلق والأمكنة المفتوحة عادة تحاول البحث في التحولات الحاصلة في المجتمع, وفي العلاقات الإنسانيّة ومدى تفاعلها مع المكان مثل الساحات, والملاعب, والشوارع , وسوف تتناولها الدراسة حسب ورودها في النصوص المختارة.

**والمكان المغلق :** هو المكان الذي حددت مساحته مثل البيوت, والغرف, السجون وغيرها, هو أيضا المكان الذي يحول "دون التمكن من الحركة فإنَّ هذه الحالة تعبير عن العجز [3] وعدم القدرة على الفعل أو التفاعل مع العالم الخارجي [4]" فكان لكل منها دلالات, وقدّم من خلالها رؤى عديدة ومتنوعة, ومارست سلطتها على الشخصيّات.

هناك أيضاً (أماكن رئيسية, وفرعية, وثانوية, ولكل منهما أيضاً دلالات متنوعة. [5]

وسوف تتناول الدراسة المكانين المغلق والمفتوح من منظور روائي بحت.

وفي دراسة الحكاية الخرافية يقسِّمُ الناقد الروسي "فلاديمير بروب" المكان إلى ثلاثة أطرٍ هي:

---

1 – شاكر النابلسي, جماليات المكان في الرواية العربية, ص17–18.

2 – جاستون باشلار , جماليات المكان, ص7.

3 – محمد القواسمة, البنية الروائية في رواية(الأخدود, مدن الملح) لعبد الرحمن منيف, دار الينابيع للنشر والتوزيع, عمان, 1998م, ص89.

4 –سيزا قاسم, بناء الرواية , ص103 .

5 – مهدي عبيدي, جماليات المكان في ثلاثية حنا مينه, منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب– وزارة الثقافة, مكتبة الأسد, دمشق, 2011 م, دط , 95.

1- المكان الأصيل: هو عادة مسقط الرأس ومحل العائلة والأنس.
2- مكان الاختبار الترشيحي: هو مكان عرفي وقتي مجاور للمكان المركزي.
3- مكان الإنجاز أو الاختبار الرئيسي: هو المكان المركزي الذي يقع فيه الإنجاز.[1]

وكما أسلفتُ سابقاً أنَّ المكان الروائيّ هو محض كلمات يخلقها الروائيّ ويشيده خياله الروائيّ " لكنّ لكل مكان أزمنة وتاريخ. والمكان يتغير مع الزمن أو لا يتغير إلّا أنَّه يكتسب خصوصيته من خلال (الوصف)[2] يفهم من القول السابق أنَّ أسلوب تقديم المكان يكون بالوصف والوقفات, فالسّرد يُسْرّع الأحداث, والوصف يوقفها ويعرض للمكان.

وللروائيّ طرق شتى في تشييد المكان الروائي" منها, الوصف, واستخدم الصور الفنية, وتوظيف الرمز, ولكل منهما دَوْرَهُ الفعّال في النص الروائي" [3] ومن الممكن أنْ يقدّم المكان من خلال الشخصيّات وذلك من خلال المكان الذي تعيش فيه وتعكس طبيعة ذلك المكان, وفكر الشخصيات من خلال حواراتها داخل تلك الأمكنة, ويعتمد ذلك الروائيّ على الراوي" الذي يورد الكلام نفسه على ألسنة الشخصيّات الخيالية, وإشارته إلى استماعه للحوارات التي تدور بين الشخصيات " [4], فالمكان يختلف تجسيده في الرواية عن الزمن من خلال ترابطاته ببقية عناصر السرد.

إنَّ للغة الشعرية دوراً كبيراً في تقديم المكان من خلال التناصات والانزياحات اللغوية التي تعكس الرؤية وتقلبها على عكس المتوقع, منه فإذاً هو نتاج مجموعة من الأساليب اللغوية, من خلال إسقاط الصفات الطبوغرافيةِ عليه.

تعتمد قراءة المكان الروائيّ في الدرجة الأولى على ثقافة المتلقي وفهمه لذلك النص ومدى فهمه لترابط المكان مع بقية عناصر الفضاء الروائيّ " فالمكان لا يعيش بمعزل

---

1 - سمير المرزوقي وجميل شاكر, مدخل إلى نظرية القصة, دار الشؤون الثقافية, بغداد, 1986م, ص62-63.

2 - محمد عزّ الدين التازي, الكتابة الروائية, ص73.

3 - موقع الكتروني www.nizwa.com.

4 - فوزي الزميلي, شعرية الرواية العربيَّة, مركز النشر الجامعي, منوية- تونس, 2002م, ص307.

عن باقي عناصر الرّواية, وإنّما يدخل في علاقة تفاعل مع المكونات الحكائية للسّرد كالشخصيّات, والزمان, والأحداث, والرؤى السردية, فإنَّ عدم [1] قراءته ضمن تلك العلاقات, والصّلات يجعل من العسير فهمه داخل السرد الروائيّ؛ لذلك فلا بد من فهم تلك العناصر حتى يتسنى للمتلقي فهم المكان الروائيّ وقراءته قراءة واعية, فهي تسعفنا على فهم المكان, ووعينا به, وبالتالي فهمنا لكلية النص الروائيّ, فالمكان يدخل كعنصر أساسي مع تلك العناصر: " فالمكان نفسه لا يستطيع تشكيل مفارقة, إلّا عندما يرتبط بالحدث في طرق أُخرى" [2] فالمكان أو الرواية المكانية تمثل عتبة نصية تكمن " أهميتها في عدم اعتباطها وقدرتها على تأشير القراءة, وقد تنبئ عن الأفق الذي تسير فيه الرواية " [3] بمعنى أنَّ المكان هو أول عتبات العمل الروائيّ يمكن أنْ يقدّم انطلاقة عن الفئة التي ترمز لها الرواية وتمثلها, وتعمد قراءته أيضا على الروائي وإبداعه في توظيف هذا المكان توظيفاً دلالياً وجمالياً.

إنَّ المكان في الروايات مهما كان شكله ليس هو المكان الواقعي الخارجي, حتى لو أشارت إليه الرواية, أو قصدته, أو سمته, فهو يبقى عنصراً من عناصر الرواية الفنية التي تعتمدُ اعتماداً كبيراً على الخيالِ مع مقدرة الروائيّ على المزج بين المكانين الواقعي, والخيالي, بما يحقق رؤية منسجمة مع الرؤية الكلية للرواية بأكملها, فالمكان الخيالي يحاول من خلاله الروائيّ تصوير الواقع وإعادة صياغته وخلق واقع جديد يَأمل الروائيّ الوصول إليه. وفي النهاية فإن الآفاق التي تفتحها الدّراسات الأدبية التي تخص المكان وغيرها, هي آفاق مهمة وخصبة تخدم القارئ والدّارس.

---

1 – موقع الكتروني, www.nizwa.com .

2 – خالد سليمان, المفارقة والأدب, ص80.

3 – حمكت النوايسة, جدلية المبنى والمعنى في العمل الروائي, وزارة الثقافة, ط 1, 2013م, ص169.

# الفصل الأوَّل
# ثنائية المغلق والمفتوح

## 1.1 إضاءة حول المكانين المغلق والمفتوح

حظي المكان باهتمام العديد من الدَّارسين, والنّقّاد المنظرين, وقد اختلفت مناهجهم في تناول هذا الموضوع, فمنهم من نحا مَنْحىً وصفيّاً, ومنهم من اتكأ على التحليل النّصي لاقتناص دلالات المكان, ولجأ آخرون إلى النظريَّة كما هو الحال عند جاستون باشلار في "جماليات المكان ", أما المّنْحى الآخر فيمثّله حسن بحراوي في "بنية النص الروائيّ", والمنهج التحليلي يمثِّله ياسين النصير وشاكر النابلسي وغيرهما.

وعلى الرغم من اختلا ف المنهج فإنَّ معالجتهم للمكان لم تخرجْ عن توصيفاتٍ وتقسيمات متقاربة, فالمكان مغلق ومفتوح, والمكان يتوفَّر على أبعاد جغرافيَّة, كما يتوفَّر على أبعادٍ دلاليَّة, والمكان طاردٌ وجاذب, والمكان حالة وحُلولٌ, والمكان معادٍ وأليف, وغَيْر ذلك من المُسمَّيات الشائعة المعروفة لدى الدَّارسين لكثرة تداولها.

ولعلَّ ثنائيَّة الانغلاق والانفتاح تشكل ركيزة مهمّة في الأبحاث المعاصرة؛ لأنَّها تقدم دلالات مختلفة, تكشف عن منظومة القيم والعادات والتقاليد, بالقدر الذي تكشف فيه عن نفسيَّة الشّخصيَّة وانتماءاتها وثقافتها وحضارتها؛ لذا جاء هذا الفَصْل محاولاً تحليل هذه الثنائيّة في روايات السَّالميّ التي اختلفت من زاوية تحديقها في المغلق والمفتوح بما يخدم رؤية الكاتب, وبما يكشف عن تجاوز المغلق إلى المفتوح, والمفتوح إلى المغلق, وسيتبيّن أنَّ الانغلاق والانفتاح سمتان نسبيَّتان؛ فالمغلق في رواية ما (السَّجْنُ مثلاً) قد يكون مفتوحاً في رواية أُخْرى, والمكان المفتوح كالصَّحراء قد يتحوَّل إلى مُسْتَوْدَع من الأسرار فيكون مُغْلقاً.

ومِمَّا تجدر الإشارة إليه ودراسته هو: طرق تقديم المكان المفتوح والمغلق في الروايات المختارة من أعمال الحبيب السَّالميّ, فثمَّة تقديم مباشر من خلال الوصف(الوقفة), وثمَّة تقديم من خلال الشّخصيَّة الغائبة, وآخر من خلال الراوي المخبر عن نفسه(السّارد) أو من خلال القاطن (الراوي المشارك) والمكان نَفْسه. إنَّ مَسْألة التغيُّر والتطور ستحظى باهتمام الباحث؛ لأنَّ النصوص المختارة (أسرار

عبدالله, جبل العَنْز, وعشاق بيَّة, وصورة بدوي ميت, ونساء البساتين) تُظْهِرُ قَلْباً للدلالة أحياناً فالميادين العامَّة مثلاً تحوي داخلها ما هو مُغْلق, أي أنَّ المنفتح يتضاءَل دوره حتى يضيق, وسيتبين أنَّ الرواية الواحدة تتوفر على النمطين كليهما, وعلى وفق الظروف المحيطة, ورؤية الكاتب, وتطوّر الحبكة... إنَّ هذه المحاور وغيرها ستشكل أسئلة الفصل الأول من هذه الدراسة.

### 2.1 المكان المفتوح وتجلياته

للمكان الفنيَّ حضورٌ لافت في روايات السَّالميّ, سواء أكان ذلك بالإشارة الصريحة أم بدلالة الأحداث وتفاعلها على أرض صَلْبة, لعلَّه من البديهي القول إنَّ الأحداث لا تجري في فضاء زماني حَسْبُ, وإنَّما يتجلّى حضورها على مساحة جغرافيّة مُحدَّدة, ولا يَعني ذلك أنَّنا نتعامل مع مكانٍ واقعيٍّ, وإنَّما نبقى نعيش مع الرواية في حيّز مكانيٍّ فنيّ مكوَّن من مفردات لغويَّة, تُقدِّم بالضرورة, آفاقاً للقيم الإنسانيّة, بما يتوفّر على التَّواصل والتكامل, أو التباعد والتنافـر؛ لذا فإنَّ المكان يشكِّل ثنائية جدلية مع الإنسان؛ لأنَّ المكان دونما تجربة إنسانية يفتقر إلى القيمةِ, أو وفق ما يقول ياسين النصير: "وكل مكانٍ مدانٍ ما لَمْ تجرِ عليه خبرة الإنسان"[(1)].

المكان المفتوح في رواية **(نساء البساتين)**:

يتَّضِحُ الانفتاح جلياً منذ الاطّلاع على العُنْوان: العتبة النصيّة الأولى في الرِّواية, وهو البوَّابة الأولى للنصّ, يُغري الباحث في محاولة الولوج إلى السَّرد, ويدفع المتلقي إلى إيجاد تفسير معقول له. ويتضمّن العنوان خبراً لمبتدأ محذوف, مكوناً من مُضاف ومُضاف إليه يتلبَّس بالمكان ويدشِّنُ ظهوره (البساتين), ولكنه لا يأتي منفصلاً عن الإنسان بل يتقدَّم الإنسان (نساء) مُوْضِحاً ارتباط البَشر بالأمكنة, وهذا يشي بمسألتين تشكلان إيقاعاً لافتاً يضبط السّرد منذ البداية حتّى النهاية, وهما: المرأةُ بكلِّ ما تَحْمِلُهُ من قدرة على العطاء والخِصب والسَّلْب, على وفق النصّ, والثاني الطبيعة المتمثّلة بالبستان بكل ما يَحْمِلُهُ من قدرةٍ على العطاء والخْصب والسَّلب, وهذا الاستنتاج يتّفقُ

(1) ياسين النصير, إشكالية المكان في النص الأدبي, دار الشؤون الثقافية العامة "آفاق عربيَّة", بغداد, ط 1, 1986,ص 5.

مع ما يراهُ شعيب حليفي؛ إذْ يعدُّ العنوان خطاباً؛ لكونه سلطة النصّ وواجهته الإعلاميَّة[1].

إنَّ أوضح ما يعزِّز ذلك هو الاستهلال السَّردي وهو"المفتتح الذي يشير إليه الروائي" [2], فهذا الاستهلال يجعل القارئ يتجه بأنظاره إلى ذلك المشار إليه وإلى التلهف بالغوص في أعماقه, فالجملة الاستهلالية : "هي الجملة التي تقدِّم الموضوع الرئيسي"[3] وهذه الجملة هي المفتاحية للنص وهي ما تسمى بالمنطلق السَّردي الذي يبدأ الروائيّ نصّه به, فقد يبدأ النص الحكائيّ بزمان, أو مكان, ولكل منهما دلالاته الخاصة في سياق الحكاية, وَيُفْضي كل منهما إلى مدلولاتٍ تَظهر فيما بعد من خلال أثر هذا الاستهلال, والمنطلق الذي منه يبدأ عالم السّرد.

إنَّ رواية ( نساء البساتين ) جاءت على خلاف باقي الروايات المختارة من حيث استهلالها بالمكان المفتوح, وإنَّ لهذا الانفتاح دلالات تتجلى في دور هذا المكان المفتوح في تطور الأحداث, وبناء الشخصيات, وسوف يتضحُ أثر هذا المكان في الفضاء الروائي برمته . تُسْتَهل الرواية بالمقطع التالي: " لاشيء تغيّر في حديقة العمارات سوى أنَّ النباتات كبرت واستطالت, وأنَّ أشجار السرو والدفلى صارت سَامِقَة وارفة."[4]

إنَّ أوَّل ما يلفت نظر القارئ هذا الإيحاء بأنَّ ثمة تجربة وخبرة ماضية قديمة لشخصية البطل/ الراوي مع هذا المكان, فهو مستقرٌّ في ذاكرته رغم السنين التي أمضاها في باريس, وثمَّة ما يشير إلى مقارنةٍ خفيّة ولكنها قادرة على استثارة القارئ ودفعه إلى الكشف عن ماهيَّة التغيير. إذا كان البطل قادِماً من باريس إلى تونس العاصمة فإنَّه لمْ يَلحظْ تغيُّراً لافتاً كالذي يراه في باريس, وكأنّنا أمام مقارنةَ بينَ حالتين هما التطوُّر والثبات, وكلاهما لا يقتصر على الماديّات كما يحلل النص وإنّما يشمل القيم والدين وأموراً أُخرى.

---

1- شعيب حليفي,"إستراتيجية العنوان", مجلة الكرمل ,ع 46, 1992,ص3.

2- ياسين النصير, الاستهلال, دار الشؤون الثقافية العامة ,العراق_بغداد, د.ت ,ط1, ص68.

3– عبد الرؤوف زهدي وآخرون, كتابة الفقرة, دار حنين,عمان_الأردن,ط1, 2008, ص41.

4– الحبيب السالمي, نساء البساتين, دار الآدب, بيروت, ط1 , 2010م ,ص5 .

إذن اسْتُهِلَّتْالرواية بحديقة حي العمارات وهي مكان مفتوح, ولهذه البداية دلالة تشي للقارئ بأنَّ المكان المفتوح سوف يكون له دور في الارتقاء والتطور, يكون أكثر اتِّساعاً من حيث المنظور الروائي, والفكر والتطور, والانطلاق بالأحداث, ومهمة الشخصية, فالحديقة تشي بجمالية هذا المكان المفتوح, وقد كان هذا المكان بمثابة وقفة يترجل عندها البطل من صهوة جواده, حتى يتخلص من خلال هذا المكان مِمَّا به من هموم, ولكن يبدو أنَّ الأمر مُخْتلفٌ؛ إذْ إنَّ المياه راكدة لم تحرّك الأشياء, والقيم إلا مادياً, إنَّ هذا الاستهلال يسير بنا إلى أماكن أخرى مفتوحة:(الحديقة–الأحياء–الشوارع–البحر) وغيرها, وقد قدّمت هذه الأماكن كما سترى بطريقة جمالية خاصة, من خلال امتزاج المكان وتلاحمه مع العناصر المشكلة للفضاء الروائي برمته.

أسقط السَّالميّ من خلال المكان المفتوح بعض ما حمله من الغرب على الحياة الواقعية التي بدت متناقضة مع الإنسان نفسه فيما يبطنه وفيما يظهره, ومتناسقة مع الحياة الغريبة التي عاشها البطل في فرنسا, فشعر بشيء من الصدمة وهيمن عليه هاجس المقارنة بين العالمين قبل عودته في إجازة لمدة قصيرة إلى تونس, فقد عقد مقارنة بين العالم الذي عاشه في الغرب والعالم العربي الذي عاد إليه بعد طول الغياب, وأظهرت الرواية أيضاً الصفات المشتركة بين العالمين, عالم فرنسا التي عاش فيها البطل وتشرب من قِيمها وأفكارها, وانغمس فيها, وتغلغلت في داخله, وصقلتْ شخصيَّته, وشَكَّلَتْ عنده رؤيا مغايرة للعالم الذي نشأ فيه, وتشرب قيمه وعاداته القديمة, فبات البطل بين "المطرقة والسنديان" بين الأخذ بزمام تلك الثقافة الغربيَّة وبين التمسك بالقيم التي تشربها في ذلك الزمن البعيد.

وعلى الرغم من وجُود هذه الثنائية: الشرق_والغرب, فإنَّ بطل الرواية أعطى المكان التّونسي: تونس العاصمة بشوارعها وأزقتها اهتماماً بالغاً فانتهى إلى أنَّ المسالك اليوميّة للناس محكومة بالتناقض والنفاق, ولعلَّه بدا منحازاً إلى الغرب الذي سيعود إليه قريبا. حتى المدينة كانت حيَّة " ليست كتلة أسمنتية صمَّاء, بل يخترقها دفق إنساني حي[(1)], وعلى الرغم من أنَّ المدينة مكانٌ مفتوحٌ, فإنها تبدو في هذه الرواية أضيق من

---

(1) حسن نجمي, شعرية الفضاء السردي, المركز الثقافي العربي,الدار البيضاء, ط 1, 2000م, ص145.

غيرها من حيث احتوائها لكثير من الأفكار المغلقة التي حوَّلت المكان إلى مغلق وقد اتضح ذلك من خلال مجموعة من الحوارات بين شخصيَّات متعددة, وهي حوارات يغلب عليها الانزياح عن المتواضع الاجتماعي؛ مما اضطر الشخصيَّات إلى الانغلاق, والنظر إلى المفتوح بوصفه مكاناً مغلقاً.

قدم السَّالميّ المكان المفتوح على أنَّه يخترق فكر الشخصيات ويتغلغل فيه ويضيق فيه شيئاً فشيئاً ؛ ولعل ذلك يعود إلى تغيير الحياة التي عاشها البطل أيام الطفولة في القرية التي تدل على البساطة في الفكر والحياة الاجتماعية , لا سيما أنَّ هذا المكان القرويّ يمثل بالنسبة للشخصية مكاناً أليفاً حميميًّ. إنَّ المكان يضيق بحياة الإنسان مثل الزمان تماماً ؛ لأنَّ وجوده في المكان يستمر معه طوال العمر, "فلا تكتسب الذات أهميتها إلا من خلال تفاعلها مع المكان الموجود ة فيه"[1], فالمكان قد يصبح ضيقاً على الإنسان على الرغم من أنَّه مفتوح كالمدينة أو الشارع أو البحر.

إنَّ ذات الإنسان لا تكسب قيمتها وأهميتها إلّا من خلال العالم المكاني الذي تعيش فيه. قد يشعر الإنسان بالاغتراب الذي هو:" حاله من العجز تفصل العروة الوثقى بين الإرادة والإنسان"[2], بمعنى أنَّ المكان قد يفضي بالشخصية إلى حالة من عدم " تحقق الاندماج فيصبح الفرد ممسوح المعالم والإرادة" [3], وبمعنى آخر إنَّ الفرد لا يستطيع التّأقلم في هذا المكان لو كان هذا المكان وطنه, ويشعر بحالةٍ من التناقض بين القبول والرفض, وبين الانغماس في هذا أو عدم الانغماس ويشعر فيه بالضياع.

وما تقصده الدراسة هنا أن المكان المفتوح كما قدَّمه السَّالميّ في هذه الرواية تقديماً على عكس المتوقع, بحيث كان من المفترض أنْ تظهر المدينة على أنها مكان يسمح بالتأقلم والاندماج فيه, إلا أنَّه ظهر من خلال شخصياته بحالة متناقضة تفضي إلى أنَّ المدينة, **(مكاناً)** عبارة عن مجموعة من المتناقضات, ومثال ذلك في الرواية " الآن في

---

1- صبحية زعرب, غسان كنفاني جماليات السرد في الخطاب الروائي, دار مجدولاوي للتوزيع والنشر ,عمان–الأردن,ط1, 2006, ص95.

2- زعرب, غسان كنفاني جماليات السرد في الخطاب الروائي, ص 95.

3 – زعرب, غسان كنفاني جماليات السرد في الخطاب الروائي, ص 42.

تونس تجد كل شيء مع الحجاب "[1], ظهرت تونس هنا على الرغم من أنّها مكانٌ مفتوحٌ متشددٌ, بصورة تشعر القارئ أنَّها مكان منغلق وخصوصاً في عبارة (كل شيء مع الحجاب) , وأرى أنَّ السَّالميّ يدين الحجاب ويعده من الرجعية عندما أظهر تونس على أنها مكانٌ مغلقٌ ذو متناقضات فهو منغلق على أفكار الشخصيّات ؛ يقول على لسان الشخصية: " لكن ها هي تتكلم بجرأة ودون حرج كما عرفتها دائماً, ها هي على ما يبدو تحافظ, رغم التغيير الذي طرأ , على مظهرها الخارجي على ما أعتبره لديها "[2]. فالتغيير من الخارج والإصرار على الخطأ يُعدُّ نوعاً من التناقض , والنفاق الاجتماعي بحيث إنَّ الشخصية ظهرت بزيها الخارجي على عكس ما تبطن داخلها من التجدد وعدم الاقتناع الداخلي بهذا اللباس , وقد تكون هنا أيضاً إدانة للمجتمع التونسي, ذلك المجتمع كثير التناقضات, كما ظهر في متن الرواية, وتجلى ذلك التناقض في شخصياتهم, وطرائق معيشتهم, ولباسهم وحتى في حياتهم اليومية.

ومن خلال التَّقَصّي للفضاء المكاني في هذه الرواية وَجَدْتُ أيضاً أنَّ بعْضَ الشخصيّات تعاني من الغربة الداخلية في المكان (الوطن)؛ كونها تعيش في حالة من عدم الاستقرار النفسي مثل شخصية ( نَعِيمة ) التي كانت متحررة ثم ارتدت الحجاب , وكانت "**تشغل**" القرآن, والدروس, والأناشيد الدينية بصوت مرتفع, إلا أنَّها كانت تعيش حالة من عدم التوازن بين ما تظهره وبين ما تعيشه بالفعل , وهي عبارة عن أنموذج للمجتمع التونسي الذي يسعى الروائيّ إلى تغييره, أو إدانته. أرى أنَّ المكان ساهم في خلق بعد وغربة بينه وبين شخصية (نعيمة)فهي لم تنتمي إلى المكان وتتأثر به بل عاشت حياة التناقض الذي فرضها عليها المكان.

يكشفُ البطل الذي عاد من باريس في إجازة يقضيها في وطنه عن اضطراب جليّ في منظومة القيم مثل: التأرجح بين التدين والتحرر, والصدق والكذب, وبين الخيانة والوفاء وغيرها الكثير من المتناقضات التي رأى أنَّها قد اختلت مع تغير الزمن ودخول قيم غربيَّة على المجتمع التونسي, وتجلّى ذلك في الحياة التونسية بين محاولتها المحافظة على العادات, والتقاليد, ومواكبة الحداثة والتطور والانفتاح . يتضح أثر المكان من

---

1- رواية نساء البساتين, ص11.

2 – رواية نساء البساتين, ص11.

خلال فرض سطوته على الشخصية وتشكيها على ماهيته فالشخصية أصبحت متناقضة؛ لأنها تعيش في عالم يعج بالتناقضات.

والمكان المفتوح يدلُّ دائماً على التناقض في هذه الرواية , كما يقول مراشدة في موضع آخر: " ذلك المكان الذي تدور فيه أداة الرواية, الذي ينطلق إلى خارج الحدود إلى بلاد الغربة "[1].

إنَّالمكان الذي دارت فيه أحداث الرواية وهو (تونس) بأحيائها وأزقته ا وبيوتها يقدِّم لنا التناقضات في المجتمع العربي عامة, والمجتمع التونسي خاصة, والبيت العربي أنموذجاً لذلك المجتمع , من خلال التأرجح بين التقاليد الدينية, والعادات, والتطور. بمعنى أنّ شخصية البطل تَتَّجه إلى خارج هذه الحدود الضيقة؛ للانحياز إلى عالم الغربة الذي ظهر على أنَّه عالم بلا متناقضات.

وثمة التفاتات إلى علاقة البيئة بذلك التأرجح بين التمسك بالموروثات والقيم, وبين الانسياق وراء التطور والحداثة الذي قد يكون من شأنه ترك القيم والموروثات, وأخذ بتلابيب شخصيَّات الرواية, فقد صور السَّالميّ البيئة التونسية خاصةً في حي البساتين الذي شكَّل موضوعاً لافتاً يوقع عليه السَّالميّ, ومن الممكن أنْ نستشف من هذ ه الالتفاتا ت أنَّ ( نساء البساتين) "مفعم بالأسرار والألفاظ المرتبطة بالخيال الحك ائي الشعبي"[2], وهذا العنوان, على الرغم من تجليه ووضوحه , يحمل في طياته الكثير من الأسرار والرؤى التي تشكلت من خلال السرد والوصف, كما تبيَّن سابقاً.

هذا العنوان يفضي إلى ذلك المكان المفتوح البسيط الذي كان من المفترض على الشخصيات وهي النساء, والرجال على حدٍ سواء , أن تعيش في تلك البساطة, التي قدمها هذا المكان المفتوح, فقد قلبت تلك الشخصيات الرؤية, غير ما كان متوقع اً منها ألا وهي البساطة في الفكر , وحتى في الحياة المعيشة والمحافظة على التقاليد العربيَّة والإسلامية بالأخص.

---

1 – عبد الرحيم محمد عبد الرحيم, دراسات في الرواية العربيَّة, دار الحقيقة للإعلام الدولي, ط 1, 1990م, ص28.

2 – موقع الكتروني: . www.kitabt.com

وعلى الرغم من أنَّ الدراسة ترى أنَّ السَّالميّ من خلال رواياته يدين الحجاب إذ إنَّه يدل على التشدد وعدم مواكبة التحضر والتطو ر, فإنَّ السَّالميّ لم يتعمقْ في مناقشة المسائل الدينية إلى حد الخوض في أمور العقيدة الإسلامية بشكل واضح, وهذا مرفوض بتاتا.

وقد اتضح موقف الكاتب من خلال حركة الشخصيّات: يسرى, إبراهيم, النادل, نعيمة...وغيرهم, فالقارئ يلاحظ كثيراً من أشكال التجاور المعادي, فعلى الرغم من أنَّ ابن إبراهيم يُدرَّب على الصَّلاة, ويُربى على المحافظة على صلاة الجمعة, يذهب إلى المسجد مع أبيه, فإنَّ أباه إبراهيم لا يرعوي عن معاقرة الخَمْر والسقوط في كبيرة الزِّنا, وهو أَمْرٌ عفويّ ينمُّ عن جهل الشخصيات, ولكنَّه في الوقت نفسِهِ يشيرُ إلى تساؤلات كبيرة في ذهن شخصيَّة الابن الصغير.

ويفصح المشهد المكاني وخاصة في المكان المفتوح عن مدى الاغتراب الداخلي والخارجي للشخصيات ويمثل ذلك قوله : " تونس تغيرت... تغيرت نحو الأسوأ .. بالطبع"[1], وهنا تتجلى رؤية الشخصيّة الرئيسيَّة بالنسبة لوطنه فهي تقول صراحة: إنّ بلاده ا تغيرت, وكان هذا التغيير للأسوأ, فهي لم تعد كما كانت.

تونس مكان مفتوح كونه يشمل أماكن مثل المدينة والشوارع والحدائق والساحات كما ذكرت سابقاً, فكأنَّ الكاتب يلوِّح لنا بفكره بأنَّه يدين الواقع العربيّ والتونسيّ بالأخص, وكان ذلك يتجلى بما تظهره الشخصيات من خلال تصوير وجهات نظرها.

يقوم المكان كما هو معروف, بتقديم دلالات ومعانٍ مختلفة باختلاف رؤى الكتاب وتوجهاتهم, وأحياناً "يمكن للروائيّ أنْ يحول المكان أداة للتعبير عن مواقف الأبطال "[2], وهذا ما نجده فعلاً عند السَّالميّ الذي جعل المكان يعبر ويفضح حال الأبطال الذين يعيشون فيه , ويعكس وجهات نظرهم, يقول السَّالميّ على لسان الراوي العليم: " كان

---

1 – رواية نساء البساتين, ص47.

2 – حميد لحمداني, بنسبة النص السَّردي في منظور النقد الأدبي ,المركز العربي الثقافي.بيروت– الدار البيضاء,ط 2, 1993, ص 70

طموحاً وكان يريد أن يصبح مهندساً كبيراً , إلا أنَّه انقطع عن الدراسة ؛ لأنه لم يحتمل الغربة, لأنّ الحياة في أوروبا صعبة وشديدة التعقيد "[1].

في هذا المشهد المكاني يظهر المكان الغربي, على الرغم من تطوره وانفتاحه , مكاناً يحد من الطموح؛ لأنَّ الحياة صعبة ومعقدة لا تُلبيّ الطموحات, ويتضح لنا أيضاً أنَّ الشخصيَة تُقدِّم لنا رؤي ةً عن واقع الإنسان العربي الذي يسعى للسفر إلى بلاد الغرب. كيف يواجه صعوبة الحياة؛ لأنَّ هذا الواقع الجديد يصطدم بالواقع العربيِّ الذي كان يعيشه؛ لكثرة التناقضات والاختلافلت أو لصعوبة تكيُّفه مع الحضارة الجديدة, التي تُعَدُّ نموذجاً فذاً للانفتاح, كما يراه السَّالميّ ممثلة بفرنسا عامة, وباريس بشكل خاص.

**المكان المفتوح في"جبل العَنْز"**

تُطِلُّ علينا الرواية بالعنوان المكاني الخيالي, الذي هو عتبة من عتبات النص ذو دلالات موحيةٍ عن نوع المكان والرسالة الموجهة من الكاتب , فالعنوان هو : "تسمية للنص وتعريف به وكشف له, يغدو علامة سيمائية تمارس التدليل وتتموقع على الحد الفاصل بين النصّ والعالم ليصبح نقطة تقاطع للإستراتجيات التي يعبر منها النص"[2], وهذا المفهوم لعتبة النص يقدَّم صورة موجبة للنص, فهو يغدو علامة إلى ما وراء النص ويتقاطع مع باقي العناصر حتى تتكاتف وتقدم لنا رؤية واضحة.

وهذه الرواية هي رواية مكانية بالدَّرجة الأولى ومن عنوانها كما رأينا, تقدم لنا صورة أن المكان الأكثر أثراً في الفضاء الروائي هو المكان المفتوح كون الجبل مكان اً عالياًَ ومفتوحاً, وهذا الانفتاح يشي لنا بالرؤى التي ستتضح فيما بعد عن المكان وعلاقة البشر فيه, وهي تصف الأحداث التي دارت في هذا الجبل الذي غدا المكان الرئيس الذي حوى كل الأماكن الأ خرى, وكانت كل الأماكن تابعة له في تأثيره الكلي على الأحداث.

يمازج السَّالميّ بين الأمكنة الواقعيّة والمتخيَّلة, فقد جعل المكان بِنَوْعيهِ هو المحرك للأحداث داخل الفضاء الروائي جعل تلك الأماكن تعبِّر عن جريان الأفكار وانفتاحها . حيث جعل السَّالميّ , من خلال اللغة, القارئ يتموقع داخل الرواية ويعيش

---

1 – رواية البساتين, ص75.

2 – خالد حسين حسين, في نظرية العنوان, دار التكوين للطباعة والنشر, ط1, 2007م, ص77

عالمها, ويكون مشاركاً فيها ,"وأن يختار عزلته أو حضوره مع الآخرين, و يقدم إحالات إلى الرؤى التي قدمها له النص الروائيّ , والمكان في هذه الرواية هو المحرك للشخصيات والمقدم للأفكار, والرسائل والرؤى التي يريدها الكاتب. أمّا عن الأماكن المفتوحة في هذه الرواية فهي عديدة وأبرزها:

**القرية:**

يعدُّ السَّالميُّ القريةَ مكاناً مفتوحاً جغرافياً لكنه ضيقٌ فكرياً ونفسياً , فقد ظهر في بداية الرواية مكاناً قديماً غير قابل للتطور , تجري فيه الأحداث مع الشخصيات ببطء شديد, وَبَعْدَ ذلك في متوسط الأحداث يصبح هذا المكان أكثر اتساعاً ويقدِّم تأثيراً في الشخصيَّات والأحداث, ويحاول الكاتب أنْ يجعل من القرية مكاناً مفتوحاً متطوراً إلا أنَّ هذا التطور كان شكلياً لا جوهرياً .

إنَّ تأثير المكان على الشخصية يجري في حدود ضيقة فكما أسلفت, أنَّ السَّالميّ يحاول خلق واقع جديد في هذه القرية المتخيلة التي تعد أنموذجاً للريف التونسيّ, إلا أنَّ تأثير المكان أقوى على الشخصية, يقول السارد في الرواية: "أمضيت الأيام الأولى وحيداً منطوياً على نفسي. عندما ينزل الليل أشعل المصباح , وأكتب رسائل طويلة إلى أهلي أقول فيها سُكَّان جبل العَنْز يجيدون زراعة البطاطا, وإنّ الأطفال أذكياء , والعزلة قاتلة"(1), فهذا هو حال القرية وأهلها فهم لا يعرفون غير زراعة البطاطا كباقي القُرى التي لا يعرف سكانها سوى الزراعة, وكانت حياة القرية في جبل العَنْز مُمِلَّة وصعبة , تفتقر إلى أبسط الأشياء ومنها وجود الكهرباء.

ربط السَّالميّ ذكاء الأطفال بالعُزْلة, والقرية مكان يعبِّر عن حالة الريف العربيّ الذي, على الرغم من أنه مكان واسع مفتوح, إلا أنَّه يضيق ذرعاً بساكنيه فالأطفال في هذه القرية أذكياء , ولكن لا تتوفر لهم الخدمات التي تجعل هذا الذكاء سراباً لا طائل منه. هذا هو الواقع العربي الريفي, فالمكان هنا , يحاور كل شيء, يرفض مثلما يقبل يعيش مع الشخصيات بتناقضاتها, يضيق ويتسع, يفرح ويحزن كالبشر تماماً.

---

1- الحبيب السَّالميّ, جبل العَنْز, المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر, الطبعة الأولى, 1988م, بيروت.ص 15.

يصور السالمي حال المكان العربيّ والريفيّ بأنه إنساناً يشعر, ويفرح بفرح ساكنيه, ويحزن بحزنهم, ويضيق بضيق فكرهم وحالتها النفسية, والاجتماعية, فهو يتماشى مع ساكنيه, والكاتب هُنا يكشف عن أثر المكان في تشكيل الحياة البشريَّة, كما يعمل على أَنْسَنة الأمكنة.

أمّا عن بقية الأماكن المفتوحة في هذه الرواية فهي بالمقارنة بينها وبين الأماكن المغلقة قليلة, إذْ كانت الأماكن الطاغية على الرواية هي الأماكن المغلقة وسوف يتم عرضها لاحقاً.

كل أحداث الرواية تمحورت حول مكان واحد وهو القرية **( جبل العَنْز )** وهو المكان الأكثر حضوراً من خلال تقصي الفضاء المكاني , وقد ظهر التركيز على هذا المكان من خلال جعله محركاً للأحداث معبّراً عن الرؤيا للكاتب والشخصيات.

وقد جعلَ السَّالميّ هذه القرية النائية وهذا المكان مساهماً في تطوُّر أحداث الرواية فالمتأمل فيها يجد أنَّ المكانَ المفتوحَ ساهَمَ في جعلِ شَخْصٍ واحدٍ يتحكَّم في شخصيّات الرواية كلها, كما قدَّم دلالة التعبير عن الحالة الاجتماعية التي يعيشها معظم أهل القرى , فالمكان على رغم انفتاحه جغرافياً إلا أنَّه يضيق بهم ثقافياً وفكرياً وحتى عاطفياً فتتجمد عواطفهم , وأفكارهم. إنَّ المكان يعبر عن ساكنيه ويترجم أحاسيسهم وأفكارهم, فهو لا يمثل الخلفية التي تقع فيها الأحداث فحسب , إنما "يتجلى بصورة البطل الذي يحرك ويغير ويبدل ويؤثِّر ويتأثر"[1]. يقول السارد في الرواية:

"كما توقع أهل جبل العَنْز. منذ أن نُظِّمَ في ساحتها أول اجتماع أصبح الناس مقتنعين أنَّ المدرسة تحولت إلى مكان ريفيّ يستقطب كل ما يطرأ على القرية من تغيير "[2], و المشهد المكاني يُفْصح عن الفكرِ الذي يحمله أهل قرية "جبل العَنْز " فمجرد رؤيتهم لدخول شاحنة إلى ساحة المدرسة شكَّل عندهم خوفاً وهاجساً فخرج الأطفال عراة, والنساء تنظر من النوافذ, والرجال قد خرجوا ليستطلعوا الأمر وقدَّروا أنَّ المدرسة سوف تكون مكاناً يستقطب شيئاً طارئاً, وجديداً عليهم بل هم مقتنع ون, فالقرية

---

1- صالح محمد حسين مزهل, الفضاء القصصي في قصص محمد صالح حيدرة القصيرة رسالة ماجستير في الأدب, إشراف الدكتور محمد علي عمر, 2005م.

2- رواية جبل العَنْز, ص59.

أطرت فكرهم على نَحْوٍ يقنعهم بصعوبة استقبال أي أفكار جديدة قد تطرأ على قريتهم , ومع ذلك فإنَّ المكان هنا يفصح لنا عن إمكانية التغيير الفكري لأهل القرية من خلال التعليم؛ فالمدرسة التي تمتلك التعليم والعلم هي التي تكون مؤيدة فيما بعد وتكون منطلقاً لفكر جديد وإلى عالم جديد.

لقد اكتسب المكان عند السَّالميّ في هذه الرواية بعداً واقعياً من خلال تحول المكان من المتخيل إلى الواقعيّ بالوصف, فالأمكنة" تحدد ذهنياً, ويحددها في ذات الوقت, وقد تكون الأمكنة واقعية, أو تكون أمكنة وهمية يخترعها الإنسان ويمنحها سماتها وتفاصيلها" [1] وهذا ما حدث عند السَّالميّ فقد خلق المكان ومنحه تفاصيله وسماته فقد استطاع السَّالميّ أنْ ينقل المكان لنا من الخيال إلى الواقع وذلك من خلال جمال لغته, ودقّة وصفه.

وقد جعل القرية منظومة فكرية تقليدية تحمل في طياتها بعض العادات مثل الثَّأر, والحقد الدفين, كما حدث مع البطل في جعل القرية مكاناً مفتوحاً فكرياً ونفسياً واجتماعياً إلا أنَّه لم يوفق في ذلك؛ وبقي المكان مغلقاً لا جغرافياً إنَّما فكرياً وهذا ما يُحْسَب للسَّالميّ؛ لأنَّه بذلك يكون قد نقلنا بجمال لغته ووصفه وبتقديمه للمكان بمشاهده المتلاحقة من العالم الروائيّ إلى العالم الواقعي, كون القرية تمتلك نموذجاً لحياة الكثير من الشعوب العربيَّة , فالقرية في الرواية تعكس واقع عربي تونسي, وواقع اجتماعيّ عاشه أبطال الرواية. وينقلنا الراوي العليم إلى هذا المشهد فيقول : " النبأ هز القرية. انتشر بسرعة شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً مثلما ينتشر أي خبر غريب في قرية صغيرة , جبل العَنْز أصبحت مدينة ... الفرقة التي جاءت من أشهر فِرَق العاصمة "[2].

ويفصح المشهد السابق عن واقعية الأحداث التي خلقها الروائيّ وهو يأمل ويتطلع على أنْ يقدم شيئاً يُحيل إلى الواقع ويغير فيه ولو بجزء بسيط , وتتضح الرؤيا من خلال المشهد السابق في التعبير عن تحول أهل القرية إلى التمدن والمدنية, فالمدنيَّة عندهم هي مجيء فرقة من أشهر فرق المدينة , وهذا ما يُفصح عن نظرتهم للمدينة

1- عبد الحميد المحادين, جدلية المكان والزمان والإنسان, ص61.

2- رواية جبل العَنْز, الحبيب السَّالميّ, ص61.

نظرة مغايرة لما هي عليه, فقد كانت نظرتهم إليها على أنَّها مكانٌ للهو والغناء , وهم بذلك قد وصلوا إلى المدنية بحضور هذه الفرقة التي تمثلُها.

ظهرت الفنون الروائية عند السَّالميّ في خلقه للمكان ونقله لنا من المتخيّل إلى الأقرب إلى الواقعية من خلال إضفاء سمات الواقعية عليه ؛ فقد جعلنا السَّالميّ نبحر في عالمه المكاني , ونغوص فيه إلى مدى بعيد . كان المكان على علاقة مع بقيّة العناصر المشكَّلة للفضاء الروائيّ ومن تلك العناصر التي اقترن بها المكان الزمان, وكانت العلاقة بينهما في هذا المكان المفتوح" علاقة وجودية فلم يكنْ الزمان لولا وجود المكان, ولم يكنْ حركة للمكان لولا الزمان"[1].

فكل مكان يدور في فلك ال زمن وتربطهما علاقة وطيدة فالمكان المفتوح وحتى المغلق كان له أثر واضح في حركة الزمان التي يمثّلها السّرد , فشكل كل منها الآخ ر. إنَّ زمن المعاناة أو ما يسمى بالزمن النفسي, ذ و علاقة مع المكان, فالمكان أثَّر جلياً في الإنسان وهذا ما سيتم طرحه في الفصل اللاحق من هذه الدراسة.

وبالعودة إلى القرية فهي لم تكنْ مجرد مكان تجري فيه الأحداث وتتحول فيه الشخصيات. لقد احتلت ركناً أساسياً في الفضاء الروائيّ وكما أسلفتُ: أنَّها أخذت دور البطل فيها.

إنَّ للمكان أثراً في بناء أفكار الشخصيات وارتباطها بالأحداث المتنامية التي كان للمكان جلّ التأثير عليها في تطورها وحكايتها وتحركها. ولاحظتْ الدراسة أنَّ المكان الآخر الذي شكَّل أثراً في الفضاء المكاني في هذه الرواية هو ( **شجرة التوت** ) فهذا المكان المفتوح مازج فيه السَّالميّ بَيْنَ الانفتاح والانغلاق وجعل هذا المكان يشي بأفكار كثيرة مركزاً في جعله منطلقاًلفكر الشخصيات. يقول السارد في الرواية:

"بينما كنت أفكر في البدوي الذي تبدت لي صورة إسماعيل, وهو يخطب تحت شجرة التوت تساءلت : هل سمعه البدوي [2]", فظهرت شجرة التوت على أنَّها مركز تَنْطَلِقُ منه الشخصيَّات وتجتمع فيه, ويعبر فيها إسماعيل عن فكره فقد كان يمثل ويتقمص دّوْرَ الشرير الذي قُتل في نهاية الرواية وهذا يدل على تحريك المكان للإنسان, كما

1 – عبد الحميد المحادين, جدلية المكان والزمان والإنسان, ص25.

2 – رواية جبل العَنْز, ص 49.

يقول جبرا إبراهيم معلقاً على هذه الرواية على عتبة الغلاف: عجبني الممازجة بين تفاصيل القرية الواقعيّة وبين ما يتحقق من عواطف وأحاسيس تتخطى حد التفاصيل: فكانت الرواية تبدو وكأنّها تسير على خطين متصلين منفصلين أحدهما ظاهر والآخر باطن. إنَّ هذا القول ينسجم مع رؤيا الدراسة للمكان عند السَّالميّ في هذه الرواية . فالقرية تسير وفق خطين أحدهما يمثل الواقع القرويّ الاجتماعي والآخر يعبر بسيره بشكل منفصل, وباطن يمثل الرؤية السردية التي أراد السَّالميّ إيصالها من خلال الزج بالرسائل التي حمّلها المكان وعبرت بها عن الإنسان.

لقد جعل السَّالميّ المكان يفيض فكراً ورؤى يحمّلها للشخصيات التي تدور في ذلك المكان الذي شكل الإنسان في هذه الرواية , وتجلى ذلك من خلال نقل الر اوي العليم للأحداث فهو يتغلغل في أعماق المكان فلم تجرِ أحداث أو تتحرك الشخصيات ولم يَسِرْ السرد الروائي خارج المكان.

فقد قدَّم السَّالميّ المكان عن طريق وتيرة السرد التتابعية التي تسمى (الوقفة الوصفية), فوصفه وصفاً دقيقاً , وأسعف الراوي العليمُ السَّالميّ أنْ يجعل المكان مفرقاً مفصلياً فأصبح المكان بمثابة الربان المحرك لسفينة الفضاء الروائي, فالمكان لم يكنْ عبثاً إنَّما كان جزءاً لا يتجزأ من الفضاء الروائي " وللمكان رؤى خاصة به, تنسجم مع إشارات دلالية, أو ومضات إيجابيَّة, تتجاذب أو تتنافر" [1] فالمكان يؤثِّر وي تأثَّر ويقدِّم رؤى خاصة به تنسجم مع الرؤيا الكلية للفضاء الروائي , يقدّمها بالإشارة إليها ويضيئها الحوار الذي يدور في فلكه. وهذه الرؤى قد تتفق مع باقي الرؤى وقد تتنافر وتختلف , لكنها تتشكّل من جديد وتتنافر لتفصح عن الرسائل الموجهة للمتلقي, فالمشهد المكانيّ امتدّ على مسافات كبيرة داخل النص.

وفي كل مشهد نلمس منظومة فكرية ورؤيا سديدة تقدم للمتلقي وتنقله مع التحول المكاني إلى منظومة متكاملة من الفكر المُراد إيصاله للقارئ.

---

1 – وئام ديب, تقنيات السرد في الخطاب الروائي, ص267.

**المكان المفتوح في روايتي "عشاق بيَّة", "وصورة بدوي ميت":**

أمّا عن جماليات التّشكيل المكانيّ في رواية "**عشاق بيَّة**" فللمتأمل لهذه الرواية يجد أنَّ الفضاء الروائي يوقِّع على مكان واحد مفتوح والسؤال هنا: ما السّر من وراء ذلك؟ سوف تقوم الدراسة بالكشف عن ماهية هذا المكان وما يضم في جنباته من أماكن مغلقة مثل ( البيوت, والغرف, والبئر, والحانوت وغيرها ).

وكما أشرتُ آنفاً أنّ الفضاء الروائيّ يوقّع على جريان الأحداث في مكان واحد واسع في فضاء يضم العديد من الأمكنة, وهذا المكان هو ( **زيتونة الكلب** ) التي تدور أحداث هذه الرواية تحتها والتي أخذت دور القائد الذي يسيطر ويوجه ويحرك, تحمل فِكْرَ أربعة شيوخ طاعنين في السن , فهذا المكان يكشف عن عالم هؤلاء المسنين لذكريات طفولتهم, كما أفصحوا عنها بلغة بسيطة تدل على بساطتهم وغياب حياتهم الجنسية, كما تقول الدكتورة يُمْنَى العيد موقعة ذلك على عتبة الغلاف, وكان الإيقاع الزمانيّ يتمثل: بإيقاع داخلي يمثله الاسترجاع, وإيقاع خارجي يمثله الاستباق والاستشراف," وتتماشى المسافات الزمنية, والمكان بشكل يصعب فيه فصل أحدهما عن الآخر " [1] وهو المزج بين الإيقاعين الزماني والمكانيّ اللذين كانا يسيران وفق خُطْىً منظمة ليتضافرا ويحققا الرؤيا المرادة . فكل منهما يجسد الآخر ويسير بخط متوازٍ لقرينه. وكما يرى باحث في سياق مختلف " إنَّ الزمان لا يتحرك في فراغ, بل هو يُشكل مع المكان شكلين أساسيين لوجود المادة, فحركة الزمان لا يمكن أن تنفصل بأي حال عن المكان " [2], وهذا ما وقعت عليه الرواية بأنَّ كُلاً من الزمان , والمكان المفتوح يتحركان مع الأحداث والشخصيات والحبكات ليشكلا من خلال تلك العناصر المنظور الروائي.

إنَّ ذلك المكان المفتوح يمرّ على حال واحد من هؤلاء المسنين شريط ذكرياتهم في تلك اللحظات التي يجتمعون فيها تحت ظل هذه الشجرة الباسقة, وكان هذا المكان هو المحفِّز, يظهر تلك الذكريات على أرض الواقع. وهي بمثابة الناقل لفكرهم المعبرة

---

1 – صلاح صالح , قضايا المكان الروائي, دار الشرقيات للتوزيع والنشر, القاهرة ,,ط 1 ,1997ص115.

2 – صالح مزهل, الفضاء القصصي, ص4.

عن رؤاهم وأفكارهم, فيتمدد ذلك الشريط حتى يتعانق مع سماء آلامهم وطموحاتهم ونظرتهم للحياة, فهذه الزيتونة تعريهم من أوراق خريف ذكرياتهم البائسة, وتكشف القناع عما يجول في دواخلهم من هواجس وأفكار.

إنَّ تلك الرؤى تتضافر في بوتقة واحدة من أجلِ تقديم الرؤية الكلية التي أرادها السَّالميّ بالتوقيع على ذلك المكان, كما أنَّ هنالك إشارة إلى طبيعة العلاقة بين الإنسان والمكان المفتوح , وتأثير كل منها على الآخر , وسيتم تناول تلك العلاقة في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

يقول السارد في الرواية: " زيتونة الكلب المكان الذي يلتقون فيه ليس سوى بضعة أمتار من الأرض تظللها شجرة زيتون لا أحد بمقدوره أنْ يعرف من غرسها ومتى" [1], فالزيتونة وطن لتلك الشخصيات . رُسمت ملامحها لتعبر عن صورة الريفيّ الذي يتقدم به السن ويلجأ إلى مكان يّشكِّل لديه الألفة والطمأنينة , ومراجعة الذات . وهذا المكان ليس بعيداً عن بيوتهم التي كانت شبه مهجورة من وجودهم إلّا في أوقات النوم, فجل يومهم يمضونه جالسين تحت هذه الشجرة حتى في المناسبات , وعلى الرغم من أنَّ هذا المكان غير معروف النشأة كأنّه غريب على الكل, فللمهم لديهم أنْ يتركوا كل ما يعكر صفوهم لِيلجأوا إلى هذا المكان الذي يحمل دلالة إنسانية , وهي المحبة والطمأنينة والألفة, فكما يقول عبد الرحمن منيف في موضع مختلف: " تلك الأماكن, ستؤثر بدورها في أنْ يكون ناسها بهذا الشكل, وحين يكون الناس هكذا, فإنَّهم يؤثرون فيما حولهم" [2], فهذا المكان هو الذي شكّل الشخصيات الأربع وأثَّر بها , وهي بدورها أثّرت فِيْمنْ حولها في مجتمعهم الذي يعيشون فيه.

أما بقية الأماكن المفتوحة مثل " القيروان – طريق النعوش...الخ فلم يكن لها أَثرٌ في الرؤيا المكانية للروائيّ , ولم تقدَّمْ إلا بوصفها خَلفيّات مُسْتَرْجعة تؤثث الفضاءات المكانية في"عشاق بيَّة", وثمّة أماكن مغلقة تتناولها الدراسة فيما بَعْد.

---

1 – رواية عشّاق بيَّة, الحبيب السَّالميّ, دار الآداب – بيروت, ط1, 2002م, ص13.

2 – عبد الرحمن منيف, سيرة مدنية, ص6.

**المكان المفتوح في رواية ( صورة بدوي ميت ):**

يُحيل العُنْوان إلى المكان بطريقة غير مباشرة؛ فالبدوي في البادية, وينصرف الذهن إلى الصحراء وما تشير إليه. وتحمل دلالات إنسانيّة, يتضحُ ذلك عند السؤال عن ماهية هذه الصورة للميت كيف ستكون؟ ففي هذه الرواية التي تسرد أحداث قصة البطل لهذه الرواية ( صالح محفوظ ), الذي مرت حياته بعدة أطوار وفي عدة أماكن تختزل منها الأماكن التي شكلت أثراً في الفضاء العام للرواية , فالاستهلال بنوعيه الزمانيّ والمكانيّ له رمزية خاصة تفضي للمضمون الداخلي الذي يليها, فكان العنوان هو العتبة الأولى من عتبات النص "وصورة البدوي" تمثل حال البادية والريف العربي الذي ارتبط بجلِّ الأحداث فقد أفضت إلى أنَّ التقابل البسيط بين الأمكنة المتشابهة يمكن أن يشكل " [1] أمثلة تعكس الواقع الاجتماعي الذي أثر في الشخصيات , فعندما تتقابل الأماكن المتشابهة لا بالشكل , إنّما بالأثر الذي قدمته للشخصيات ,فإن ذلك التشابه يقدم لنا مادة صالحة للتأويل؛ فكلّ مكان أَثَّرَ في النفس , يؤثّر في خلق الرؤيا الكلية للفضاء الروائيّ برمته بما فيه المكان. إنّ أماكن الرواية تتلاقى سواء كانت ريفية أو مدنية لتتعاضد مع بعضها البعض وتقدم لنا الرؤيا للشخصيّة فهذه الأماكن" تشكِّل الوعاء الذي يجمع فيه شتات النص ويربط وحداته وعناصره . " [2] تلك الأماكن تحتضن الأحداث و تلملِمُ النص وتربط بين أجزائه برمتها, فتكشف عن المستويات الاجتماعية, وترصد العلاقات في فضاء ذلك المجتمع ومن خلال تقصي الفضاء المكاني تتضح لنا تلك الشبكة من العلاقات المترابطة.

إنَّ البنية الزمنية في هذه الرواية تضرب جذورها في الأعماق وتتقاطع مع جذور المكان, وهذه الجذور" لا يمكن حَصْرها في الرواية, فهي مجازية غير مؤكدة الوجود, تعرف ذهنياً ولا تعاش" [3], فالأماكن في هذه الرواية أو غيرها لا يمكن حصرها ؛ لأنَّها

---

1 – ميشال بوتور, بحوث في الرواية الجديدة, ترجمة أنطوانيس, مكتبة الفكر الإسلامي منشورات عويدات, بيروت– لبنان, ط1, 1979, ص47.

2 – صبحي الطعان, المكان في النص, مجلة المعرفة السورية, 3784, وزارة الثقافة في الجمهورية السورية.

3 – عبد الحميد المحادين, جدلية المكان والزمان والإنسان, ص31.

بالنهاية أماكن مجازية خيالية نعيشها في ذهننا, لا على أرض الواقع. أمّا عن الأماكن المفتوحة الأكثر حضوراً في الرواية فلم تكنْ كثيرة أهمها:

**المدينة** , فثمَّة إشارة إلى المدينة التي , وإنْ كانت مكاناً مفتوحاً على العالم الخارجي , فإنَّها تشي بالانغلاق على غير الواقع أو المتوقع عليه, فالمدينة كانت رمزاً لتولد التحول وهو : " يحدث معنى جديداً معضداً أو مناقضاً . " [1] وهذا فعلاً ما قدّمته المدينة لنا فقد قلب السَّالميّ الرؤيا للمدينة وحورها , وحولها لكي تتأقلم مع رؤية الشخصية, فقد جعل من (فرنسا وباريس ) مكانين مغلقين من خلال الشخصيّة؛ وذلك بالانغلاق الفكري وعدم التطوُّر, والتنامي لشخصية البطل صالح محفوظ , فقد صوّرته الرواية بأنّه رجل مثقف عِلميَّاً إلّا أنّه يميل إلى الفكر البوهيمي, فهو لا يفكّر سوى بالجنس, وارتياد الأماكن المشبوهة التي غالباً ما يكون جلّ مرتاديها كما ظهر في الرواية من الأناس الفارغين فكرياً وثقافياً, فقد قال صالح محفوظ في الرواية: " حدّثته عن روعة الحياة وقسوتها في باريس التي يزورها للمرة الأولى " [2], فقد كانت باريس تلك المدينة الكبيرة على الرغم من كبر مساحتها جغرافياً, وفضائياً إلّا أنها ضاقت ذرعاً بصالح محفوظ ؛ فقد كان يعاني الغربة ويحن إلى قريته ( **الهوارب** ) وإلى أهله , فعلى الرغم من أنَّ هذا المكان ممتع في بعض النواحي كما أسلفت الدراسة في الحديث عن ( الجنس, والمال...الخ), إلا أنّ تلك الحياة قاسية على البطل فقد عاش فيها طويلاً إلا أنّه بقي يعاني من الغربة وشدة وطأتها على نفسه.

فتلك العلاقة بين الريف الذي تمثِّله ( القرية ) والمدينة علاقة جدلية حظيت باهتمام الكثير من الدارسين؛ لما لها من أثر كبير في الكثير من الروايات العربيَّة. فالروائي" كالرسام وكالمصور الفوتوغرافي, يختار قطعة من المكان و يؤطرها ويضيف نفسه على مسافة منها " [3], فالروائيّ يختار في كلِّ رواية مكاناً ويؤلِّف بينه وبين بقية

---

1 – محمد مفتاح, دينامية النص, المركز الثقافي العربي, المغرب, د.ط, 1987ص51.

2 – الحبيب السَّالميّ, صورة بدوي ميت, المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر, بيروت, ط1, 1990م, ص115.

3 – رولان بورنوف وريا ل أوئيليه, عالم الرواية, ترجمة نهاد التكرلي, دار الشؤون الثقافية, العراق–بغداد, ط1, 1991م , ص99.

العناصر حتى تنسجم مع الرؤيا الكلية للسرد وللفضاء الروائيّ برمته, ويجمع بينه وبين تلك القطع المختارة وذلك من خلال الراوي والسرد بضمير الغائب, وهذا ما وجدته الدراسة في هذه الرواية وفي الروايات المختارة للسالمي فقد " خلق الصورة التي تقبع فيها القرية بكل ما فيها من أشخاص وبيوت وأشجار وزرع " [1], فقرية(الهوارب) كانت البذرة الأولى لنمو الأحداث وتطورها , وكانت مركزاً لانطلاق الشّخصيّات خصوصاً الشخصيات الرئيسية, فالسكان يتأثّرون ويؤثِّرون في المكان وهذا ما تفصح عنه الكثير من المفردات المكانية في الرواية.

والمتأمل في هذا المشهد المكانيّ الذي يقول فيه السارد: " ذلك الخميس مقترن في ذهني بجيِّ ( باب الخضراء ) , هناك رأيت للمرة الأولى في حياتي جنوداً يطلقون الرصاص على الناس وشباباً يتساقطون موتى على الرصيف." [2] يَجدُ أنَّ هذا المشهد المتحرك يرتبط ذهنياً بحدث له أثره في حياة الشخصية التي قد تم نثلى إلى حد بعيد رؤية الكاتب, فقد كان هذا المكان المفتوح مسرحاً للقلق والخوف والاضطراب لدى البطل, وكان لهذا المشهد الذي رآه صالح أثرٌ نفسيٌّ, فما أنْ يمر من هذا المكان حتى يتذكر ذلك المشهد الأليم من القتل والجثث على الرصيف. فقد وجد أنَّهم كانوا يتظاهرون ويطالبون بأبسط حقوقهم كما أفصحت لنا الرواية, فكأنّما ثمّة إشارة إلى واقع الأحداث في تونس في زمن لا يكاد يكون بعيداً فبقيت هذه الصورة مقترنة بنفس الشخصيّة التي تمثل , على أية حال , فِكْرَ الكاتب الذي أراد إيصال رسالة من خلال هذا المشهد وهذه الرؤية تدين واقع المسؤول في ذلك الوقت, لكنّه لم يصرحْ عن ذلك.

أمّا عن صورة فرنسا كما صورها لنا السَّالميّ من خلال حوار الشخصيّات في المقاهي التي هي مغلقة لكنها داخل فضاء واسع فإنَّ جُلّ هذه الحوارات في بيوت المومسات, والمقاهي تظهر الفكر الانغلاقي للمتحاورين, وعدم تنامي الأحداث وتطورها بل بقيت لازمة لصورة ثابتة.

ولقد ظهر لنا مدى تأثر صالح وأصدقائه بتلك البيئة الغربيَّة التي كان تأثيرها سلبياً على الشخصيات في تطور الأحداث وتتابعها, فقد ظهرت تجليات المكان

---

1 – عبد الرحيم محمد عبد الرحيم, دراسات في الرواية العربيَّة, ص66.

2 – رواية صورة بدوي ميت, ص91

وانكشف القناع عنها كما أسلفتْ الدراسة في معرض حديثها عن قرية (الهوارب), التي ظهرت بصورة جميلة تدل على بساطة أهل الريف . ظهر ذلك في مكونات تلك البيئة التي ما زالت تحافظ على بعض القيم, والموروثات الإنسانية, فهي مكانٌ أليفٌ للشخصيات, ففيها أمه وبيته وذكرياته. حتى وهو في فرنسا كان كثيراً ما يصف نفسه بالرجل البدوي, وهذا يدل على حجم التأثير المكانيّ على تلك الشخصية وتأثير المكان في كل حياة البطل.

إنَّ أماكن الولادة والطفولة تبقي أوصالها متصلة بالإنسان الذي عاش في ذلك المكان , ويكون له أَثَرٌ كبيرٌ في بناء الشخصيّة حتى و إنْ غيرت ذلك المكان ؛ لأنَّ المكان هو الحامل لأفكار الشخصيات, وهو المحرك للأحداث يقول السارد:

" بعد تفكير طويل قدرتُ أن أقوم بمحاولةٍ أخرى لإقناعه بتغيير سلوكه, والتغلب على يأسه بالرغم من أنني كنت واثقة سأخفق من جديد في ذلك." [1], ففي ذلك المشهد والحوار الداخلي مع ليلى الذي جرى داخل المكان( البيت), أفصح لنا المشهد من خلال هذا الحوار الذي جعل لنا الحدث واضحاً كأنَّه أمامنا أنّ هـمهما طال الزمان إلا أنَّ أثر المكان يبقى عالقاً في النفس خصوصاً المكان المفتوح الذي يمثل الوطن, والقرية التي عاش فيها البطل لوقت طويل. فصورة المكان تظهر على أنّها إسقاط نفس الشخصية على المكان وإسقاطٌ على أثر الواقع المعيش بانطلاقة الحياة في مكان آخر, فالمكان هو الذي طور الأحداث, وطور الشخصيات, وشكلها.

إنَّ ذلك المكان في "**عشاق بيَّة** "مثلاً, لا حدود له كما يقول السارد الشاهد :" لا حدود ثابتة للأرض التي يقصدونها كل يوم, فهي تتحد بحركة الظل. مساحتها تكبر بكبره وتصغر بصغره " [2], نعم حتى أفكار تلك الشخصيات تضيق وتتسع مع حركة المكان الذي يمثلها الظل, فتلك الأفكار غير ثابتة لا حدود لها تبحر في ذلك الفضاء المكاني الذي يتوجهون إليه كل يوم ليتعارفوا ويحزنوا ويتذكروا, ويصلّوا, ويضحكوا. فهذا المكان يفتح الآفاق الفكرية, للشخصيات تمتزج فيه الطموحات والذّكريات مع القيم, والرؤى الإنسانية والاجتماعية, والدينية.

---

1 – رواية صورة بدوي ميت, ص119.

2 – رواية عشاق بيّة, ص 37 .

وقد لجأت الشخصيات الأربع ( محمود الصباحي, البَرْني, الطيب –المكي ) إلى سمة الاسترجاع الذي تمثل" أحد الحوافز التي تدفعهم لمحاولة تجاوز واقعهم ووضع مستقبل جديد, وكثيراً ما يعود الإنسان للماضي؛ لأنَّه أضحى مكشوفاً للآخر "([1]), فسمة الاسترجاع بالزمن التي يمثلها سَيْل الذكريات الذي يمر عبر شريط عابر , يحفزهم لمحاولة خلق واقع جديد يتخلصون فيه من ماضيهم الذي شكل عندهم رؤيا بنوا عليها مستقبلهم, وهم بذلك الاسترجاع يتخلصون من واقعهم الأليم الذي أنتابهم في ذلك الوقت, وإنَّ هذه الذكريات مرَّ عليها زمنٌ طويلٌ فغدت مكشوفة لديهم لا يخشون من كشفها أمام بعضهم البعض خصوصاً في حرم هذا المكان الذي كان لهم حميماً أليفاً ووطناً دافئاً وعندما وصف السارد المكان بقوله : " الآن وقد روى الحكاية التي لم يكن يتصور أبداً أنه سيكون قادراً على روايتها أمام رجال يجلهم وخصوصاً في مكان سريّ وغامض, مثل زيتونة الكلب" [(2)], فقدم وصفـا لصورة هذا المكان بأنه مكان مقدس وغامض لا يعرفه إلا من تغلغل فيه, ومارس فيه طقوسه الخاصة في المكان السري الحامل لذكرياتهم وأسرارهم, حتى أنَّهم كانوا لا يتورعون عن كشف عوراتهم أمام بعض في هذا المكان ؛ لأنّهم ما إنْ يحضروا إليه حتى يسقطوا كل ما من شأنه أنْ يجعل بينهم حاجزاً يحول دون ممارسة تلك الطقوس الجماعية التي كانت تربطهم في هذا المكان, المقدس, الحميمي.

وتلك الأماكن التي تم ذكرها كانت ذات ارتباط وثيق بالأحداث والشخصيات والفضاء الكلي للرواية.

**المكان المفتوح في رواية ( أسرار عبدالله ):**

نلاحظ في هذه الرواية دور التحديد المكاني الذي انقسم إلى قسمين: المكان المفتوح والمكان المغلق, وهنا سيتم التركيز أولاً على المكان المفتوح وتجلياته.

أمّا الأماكن المفتوحة التي قدمت دوراً مهماً في أحداث الرواية وأثرت جلياًفي ساكنيها , وقدّمت رؤى فهي عدة أهمها: ( منطقة العلا – شجرة التوت – الحقل – الدوار

---

[2]– أحمد النعيمي, إيقاع الزمن في الرواية العربيَّة المعاصرة, دار الفارس للنشر والتوزيع, ط 1, 2004م, الأردن, ص.32.

3–رواية عشاق بيَّة, ص14.

...الخ), فهذه الأماكن هي أماكن مفتوحة لعبت دوراً مهماً في الكشف عن منظومة القيم الأخلاقية والاجتماعية, مثل طبيعة العلاقات الاجتماعية التي ينبغي أن يسودها الاحترام والمودة.

إنَّ الأماكن المفتوحة تقسم إلى قسمين وهما:

**المكان المفتوح المُعادي,** فالمكان سواء كان معادياً أو أليفاً يبحث في التغيرات التي تحدث في المجتمع ولا سيما الإنسانية والاجتماعية ذات الأثر الواضح في خلق التغيير, سواء على مستوى الرواية أو على مستوى الواقع.

**والمكان المفتوح الأليف** فهذا المكان " صديق ساكنيه إذ تصل الألفة بينهما حد المشاركة في عكس أفراح الشخصية وأحزانها " [(1)] فهو يشارك الشخصية, وَيُؤْنِسُها, ويشعر معها, وتُعْقَدُ بينها علاقة وطيدة وتشاركيةٍ في السراء والضراء.

وترى الدراسة أنَّ المكان المفتوح لا يدلُّ دوماً على الانفتاح وسريان الأفكار, وعلى الألفة أيضاً " فمنها ما يكون بفضائه اغتراباً , وضياعاً للإنسان وبالتالي فهو مكان سلبي" [(2)] فبعض الأمكنة وإنْ كانت مفتوحة, يشعر فيها ساكنوها بالغربة سواء الداخلية أو الخارجية في محيط الوطن.

إنَّ المكان المعادي هو المكان الذي يجعل منه المبدع مسرحاً للأحداث التي يكون لها انعكاسٌ ذو أثر بيّن في مكنون الشخصيّات وأفكارها.

ومن هذه الأمكنة المفتوحة المعادية:

**1-السوق** : فهذا المكان المفتوح كان لهُ أهمية كبيرة في بنية الرواية , ومن المتعارف عليه أنَّه يشي بالانفتاح والتطوُّر, ولكنَّه في هذه الرواية ظهر على أنّه مكان مغلق فكرياً ومعادياً للشخصيةَ فلا يشعر المرءِ فيه بالألفة, وهو منغلق على فكر الشخصية: " يشعر أنّه وحيد أكثر من أي وقت مضى إلّا أنَّه لا يبالي, فهو يعرف أنَّ هذه الدنيا غدارة, وأنَّ الناس شبعوا أكثر من اللازم ولم يعودوا يقدِّرون أحداً, ثمّ إنّ سر تخوفه (عبدالله) سيتكشف ذات يوم سيزداد خبر عِصَابة الغرابة انتشاراً, ويبلغ رجال

---

1 - خالد حسين, شعرية المكان في الرواية الجديدة, مؤسسة اليمامة الصحفية, الرياض,ط 1, 2000م, ص106.

2 - مهدي عبيد, جماليات المكان, ص95.

الدوار الذين يترددون على السوق مثله, يلاحظون أنَّه خائف " [1], ففي المشهد المكاني السابق وظف السَّالميّ المكان توظيفاً بارعاً بأنْ جعله يكشف عن هواجس الشخصية من خلال حوارها مع نفسه ا داخل هذا المكان المفتوح ( السُّوق ) ويبين مدى علاقة المكان المعادي بالشخصيَّة؛ فهو يعرف أنَّ الناس تغيَّروا, وأنَّ الدنيا مُتقلِّبة؛ فقد كان في الماضي مصدر خوفٍ لكل من يعرفهم ؛ لأنَّه كان يعمل دركيّاً, وكان يمارس سلطته في هذا المكان, وجعل المكان يحمل دلالات إنسانيّة يدل فيها على تغيير ظروف البشر وأحوالهم الاجتماعية مع تغيير الزمن, وامتداده, فهو ليس فقط مجرد خلفيَّةٍ للأحداث بل ساهم في خلقها, ويمارس المكان بطشه وسطوته على الشخصية ويكشف عن قوته وقلقه فهو لا يجب أن يدخل فيه إلا سريعاً.

فالسوق هُوَ المكان الذي يحمل في طياته الاغتراب الداخليّ والخارجيّ ؛ وبطل الرواية عبدالله لم يكن يشعر إلا بالخوف والقلق ما إنْ يحضر لهذا المكان, فثمَّة" جدلية في العلاقة بين المكان والإنسان, وبين المكان والمتمكن, يتصل المكان اتصالاً مباشراً بالحركة كالانتقال من مكان إلى آخر ."[2] فتلك العلاقة تبقى دائماً مسرحاً للنقاش والجدال, فالمكان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتنقل سواء داخله أو خارجه , ولهذا التنقل أثره في بناء الشخصية يقول السارد: " يوم الخميس التالي سمع في السوق خبراً جمدّ الدم في عروقه وولَّد في نفسه الذعر, وهو أنّ "عصابة الغِرابة" اقترفوا جريمة جديدة في قرية تقع في العلا" [3], فالجانب الفنيّ للمكان في المقطع السابق كان حاضراً, فكأنَّ السوق بات يمثل للشخصية حالة من الضياع, وكأن المكان أيضاً إنسان يعادي بطل الرواية (عبدالله) صاحب الأسرار, فهذا المكان يقدِّم منظوراً روائيّاً يحمل في طياته دلالات عميقة, فيشعر عبدالله أنَّ المكان كان بمثابة منبهٍ له حول تلك العصابة التي كانت تقتصّ من كل غنيّ أو مسؤول, فالعصابة تقدم رؤيا عن حال العلاقات الاجتماعية في القرى, والريف, وتكشف عن مدى تهتك تلك العلاقات, فالمكان يحمل فكراً, ويقدم حالاً, ويتشارك معناً في الكشف عن المدلولات ويشير إليها.

---

1 – رواية أسرار عبدالله, الحبيب السَّالميّ, دار الآداب – بيروت, ط1, 2005م, ص15.

2 – إبراهيم جنداري, الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا, ص169.

3 – الحبيب السَّالميّ , أسرار عبدالله, ص135.

أمّا المكان الآخر فهو ( **الحقل** ) فللحقل يعبر عن الحالة الاجتماعية التي يعيش فيها أهل القرى وهو اعتمادهم على الزراعة؛ فالحقل يحمل دائماً رمزية الخير والخصب والعطاء , فيقول السارد: " ويتحول ضحكها إلى قهقهات طويلة عندما تتساقط كتل الزبل..., لم تتغير لما كبرت. ظلت تحب الأبقار وتحب الاعتناء بها وتنظف زريبتها, تخرجها كل صباح إلى الحقل "[1] ففي المشهد الذي يبرز فيه حضور الوصف يتحدث عبدالله عن ابنته التي يحبها ( زهرة ) , فالحقل يمثل حالة الحُب العائلي , ويتطرق إلى طبيعة تلك العلاقات, ويكشف عن الحياة اليومية لسكان تلك المناطق المليئة بالحقول, ففيها يتحول الحزن إلى فرح, وراحة, وسعادة . إنَّ هذا المكان مصدر راحة وطمأنينة وألفة لتلك الشخصيات.

أمّا منطقة "**العُلا**" هذا المكان المفتوح , فهو مُوظَّف توظيفاً خيالياً مع المزج بالواقعية," وإنّ الرواية مهما قلص الكاتب مكانها , تفتح الطرق دائماً لخلق أمكنه أخرى "[2], فمهما حاولت هذه الدراسة أو بقية الدّراسات سواء السابقة أو اللاحقة أنْ تجدد مكاناً بعينه لن تستطيع ؛ لأنَّ المكان في الرواية يفتح الآفاق لأماكن أخرى متخ يَّلة , وواقعية؛ فالعُلا كانت بمثابة مكان متشعب يقدم الكثير من الرؤى ويشي بالأفكار التي يَحْمِلُها يقول السارد: " يتطلع عبدالله حوله وهو يغادر مربط البغال والخيل والحمير حيث سمع الخبر, الطريق الذي يؤدي إلى مركز العُلا, المتكون أساساً من حوانيت السِّلع وتُجا ر أحذية وقماش, مزدحم كالعادة, وعلى جانبيه يصطف باعة الخُضَر والفواكه"[3], في هذه اللوحة الوصفيَّة يتجلى هذا المكان ليقدّم صورة أقرب إلى الواقعية , فعندما قدَّم السَّالميّ وصفاً جمالياً للمكان قدّم فيه وظيفة جمالية زُخرفيۃ مبرزاً دَوْر اللغة والقدرة,على التخيُّل والإيهام, فظهرت العُلا على أنَّها مركز للتطور فما هو متوافر فيها غير موجود في باقي المناطق المحيطة, وحتى في هذا المكان يطارده الخوف وتلاحقه الهواجس حول عصابة ( الغرابة ), التي ملَّكته حالة من الذُّعر والانطواء والقلق , وهذا

---

1 – رواية أسرار عبدالله, ص43.

2 – حسن نجمي, شعرية الفضاء السردي, المركز الثقافي العربي, الدار البيضاء, ط 1, 2000م, ص56.

3 – رواية أسرار عبدالله, ص136.

يدل على علاقات المكان التبادلية ومدى تأثيرها , فهذه الأماكن برمتها ليست حاملة للأحداث والشخصيَّات فحسب, إنَّما مشكَّلة لتلك العناصر مُوْهِمَة بواقعيّتها وحاملة لرمزيتها.

أمّا **الدّوَّار** فقد كان يدل على طبيعة العلاقات السريَّة في القرية وهي علاقات متشابكة غالباً ما تقدم من خلال مقاطع استرجاعية, يقول السارد: " **إلا أنّ ما يغضبه هو أنّها تبالغ في حقدها على خديجة, التي كانت من أعزّ صديقاتها في الدوار قبل أن يتزوجها. كلما التقتها قريباً من البئر أو في الطري أو في أي مكان آخر تشتمها مذكّرة إياها بأصلها الوضيع.** "[1] فالعلاقات الاجتماعية في الدوار مفكَّك ة يسودها الحقد والكره والحسد, فالمكان يطلعنا على تلك العلاقات , فتعكس أثرها في ذلك المجتمع المضطرب, وهو يحيل بذلك إلى الانعزال في هذا الدوّار, فالشخصيّة تعيش في عالم غير مطمئن ومريح قائم على المصالح, فما أنْ تزوجت خديجة من عبدالله , حتى تحوَّلت العلاقة بينه ا وبين صديقتها ابنة عبدالله إلى العداء وهذا يعكس واقعية الأحداث في المجتمعات العربيَّة, تلك العلاقات التي يشوبها التفكك والتشظي.

## 3.1 المكان المغلق وتجلياته

إنَّ للمكان المغلق دلالاتٌ اجتماعية, وإنسانية, وفكرية, تحيل إلى الرؤى التي أداها المرسل: أرسلها للمتلقي, فقد يكون في هذا المكان " عنصر التشويق الذي يحفظ على أحداث الرواية قدراً من التماسك الذي لا بُدَّ مِنْهُ "[2], فقد تحمل تلك الدلالات عنصراً تشويقياً يساعد على تطور الأحداث وتماسكها وترابطها , وخلق جو من انسجام عناصرها المِحْوريَّة.

والروائيّ " يرسم لوحات ناطقة للأوضاع في المجتمع, ونفسيات الناس ومدى المعاناة, فالمكان يعتبر تلك اللوحة الناطقة التي تفصح عن المجتمع وعلاقاته وعن

1 – رواية أسرار عبدالله, ص41.

2 – إبراهيم السعافين, نشأة الرواية والمسرحية في فلسطين, ص57.

مدى المعاناة[1] التي يُحمِّلها المكان للإنسان أو العكس, فتلك اللوحات هي ما يُضْفي جوَّ الواقعية على الأحداث أو توهم بواقعيتها على الأقل. وَتِلك الأماكن سواء مغلقة أو مفتوحة توحي " بأنَّ التركيز والإيحاء عليها يُضْفِي على نَسْج السرد مذاقاً خاصاً ولوناً محلياً " [2], وهذا ما يدل على قيمة المكان وعمقه في الفضاء الروائي, فالمكان يعطي رونقاً خاصاً, ومذاقاً حلواً, وجاذبيَّة فهو القادر على اختراق العلاقات ووصفها, وبيان الحالة الاجتماعية لساكنيه, ويبين مدى التّآلف والاختلاف, والتنافر في تلك العلاقات.

أمّا المكان المغلق فهو , كما سلف يَحْمل دلالات عميقة سواء إنسانيّة كانت أو اجتماعية " فإنَّ الحديث عن المكان المغلق هو حديث عن المكان الذي حددت مساحاته, ومكوناته كالغرف, والبيوت, والقصور, فهي المأوى الاختياري والضرورة الاجتماعية, فقد تكشف الأمكنة المغلقة عن الألفة والأمان, أو قد تكون مصدر الخوف " [3] والمكان المغلق كما يفهم من القول السابق هو المكان المجرد بمساحة جغرافية مثل البيوت أو الغرف ... الخ , وتلك الأماكن لا يعني أنّها مغلقة تشي بالراحة والاطمئنان, بل قد تكون معادية للشخصية وتَقضُّ مَضْ جَعَها كلَّما لجأت إليها. وفي هذا المبحث محاولة لتحليل الفضاء المغلق واستنطاق بعض دلالته في الروايات المختارة.

**المكان المغلق في رواية ( نساء البساتين )**

تعدَّدت الأماكن كما أُسلِفَ الحديثُ في المبحث الأول وبينت الدّراسة دلالات المكان المفتوح, وفي هذا المبحث تتناول الدراسة المكان المغلق دلالاته وتجلياته.

والأمكنة المغلقة في هذه الرواية عديدة أهمها ( بيت إبراهيم– والمقهى ), والبيوت بشكل عام هذه أهم الأماكن المغلقة التي قُدِّم من خلالها منظور روائيّ وسوف تتناولها الدّراسة بالتفصيل, لما لها من تأثير على الشخصيات.

---

1– سمير قطامي, الحركة الأدبيَّة في شرق الأردن, مطبعة السفير, عمان الأردن, 2009, ص225.

2 – إبراهيم خليل, جبرا إبراهيم جبرا, ص18.

3 – مهدي عبيد, جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا, ص43.

**بيت إبراهيم :** قدَّم هذا المكان رؤيا عن طبيعة الحياة اليومية للشخصيّات, ومجرياتها بكل تفصيل , ومحاولة إبراز ما بقي من قيم وعادات موروثة , وما قد انزاح من تلك العادات والموروثات الأصيلة, وتحدّث عن التناقضات في ذلك المجتمع الذي تملك فيه المرأة حضوراً قوياً, وتلك الأماكن تنفتح إلى عالم أكثر سعة, ورحابة وتعقيد , تتجلى في التناقضات في الذات التونسية , والعربيَّة , وتكشف عن طبيعة العلاقات الاجتماعية, ومشاركتها, وشرخها في مجتمع متناقض يقول **السارد :** " أخرجُ من المطبخ وأتجول قليلاً في الشقة, إنَّها المرة الثانية التي أزور فيها أخي منذ انتقاله إليها تبدو ليس أكثر اتساعاً وسط ضوء الشمس الباهر الذي كان يتدفق إليها من النوافذ المفتوحة, وحتى الأثاث أَجِدُهُ أفخمَ وأجمل مما بدا لي في الزيارة السابقة" [1], ففي هذه الصورة المكانية نجد دلالة على طبيعة الحالة الاجتماعية للأسرة التي عبر عنها بلفظة ( أفخم , وأجمل), فالأثاث يدل على الحالة المادية والرفاهية التي تعيش فيها الأسرة, وهذا البيت مُطِلّ على العالم الخارجي , لكن من خلال النوافذ , يكشف عن مدى تأثر الأسرة التونسية بالعالم الخارجي ا لذي تتصل فيه, وترتبط فيه ارتباطاً وثيقاً فكما قال (( تبدو لي أكثر اتساعاً )), يتدفق إليها من النوافذ المفتوحة, والنوافذ المفتوحة تدل على العالم الخارجي المحيط بالأسرة التونسية, وهنا تتضح الرؤيا بأنَّ المكان والعلاقات الأسرية, والاجتماعية تكسب ثقافتها من العالم الخارجي الذي تتصل به على الرغم من أنَّ هذا المكان مُغْلق إلّا أنَّه يمتدُّ في ذلك العالم ويكتسب ذاته منه, حتى ثقافته تتأثَّر به.

فالبيوت تحمل قيم اً شعورية تُحقّقها تلك الأبعاد الجمالية التي تضفي على المكان شعرية خاصة ؛ وذلك من خلال وصف المكان وأبعاده مثل: " أغراض, أثاث, وهي تلعب دور الدليل " [2], كَوَصْفه الأثاث والبيت بأنَّه جميل ومطلّ وله نوافذ مُنَفّذة للشمس, والمقصود بها العالم الخارجي, وتجلياته, فهذا الوصف يدخلنا في عالم المكان وعالم ساكنيه لعكس واقعية الأحداث, والإطلالة على ما يجري في الخارج.

يقول السارد" **تعتذرُ لي عن عدم مجيئها إلى البيت لتسلم عليّ عندما بلغتها خبر وصولي, فهي متخاصمة مع أختها, أس ألها عن سبب الخصومة فتضحك وتجيب**

---

1 – رواية نساء البساتين, ص18.

2 – ميشال بوتور, بحوث في الرواية الجديدة, ص44.

**بأنَّها خصومة نساء...صارت تنزعج كلما التقيتها منذ غرَّرت بها نعيمة وحولتها إلى متدينة.. الخ** " [1] يكشف لنا المكان عن طبيعة العلاقات في المجتمع التونسي فخلاف ليلى مع أختها يسرى وقول ليلى :( غررت بها نعيمة وحولتها إلى متدينة) , يكشف عن رؤيا ليلى التي يدلُّ كلامها أنَّها تُدِيْنُ ( **التّدين** ) وتعتبره تغريراً, والتغرير عادة للشيء السيئ والسلبيّ, فقد أبدت عن موقفها تجاه الدين, وهذا سبب لها خصومة مع أختها يسرى التي تنتقد تصرفاتها ولباسها , وكأنَّ الشخصية أيضاً تكشف عن رؤيا السَّالميّ عن الدين فالرجل كما كشفت الدِّراسة مازال حتى هذه اللحظة التي تكتب فيها الدّراسة يعيش في فرنسا ويقيم فيها فقد يكون لذلك أثر كبير في تلك الرؤيا التي لمستها الدراسة عن السَّالميّ بأنه رجل (علماني).

يقول السارد: " **إبراهيم ويسرى حدثاني بحماس عدة مرات عن المجتمع, وفي كلّ مره يبديان إعجابهما الشديد به, ويؤكدان لي أنَّه يختلف تماماً عن المجتمع القديم وأَعْرَافه, فهو أجمل وألطف وخصوصاً أكبر منه بكثير**" [2], فهذا الحوار الذي دار في البيت يكشف لنا عن ثقافة الشخصيات , ونظرتها للأشياء من حولها , فحديثه عن المجتمع, ووصفه بأنَّه جميل ونظيف , يعكس لنا مدى بساطة فكر الشخصيات ؛ فقد يُقْصَدُ الوَضْعَ كاملاً في تونس في القديم, والحديث, إذْ تطور المجتمع وتطورت المباني لكن الثقافة والفِكر والوضع الاجتماعي, يعود إلى غير ذلك كونهم يرون الواقع الجديد ألطف من العادات القديمة أي أنَّه (تحرر) فلعل في هذا وصفاً للواقع, والتّأمل في تغييره.

قد توزع صوت السّارد بين الراوي العليم, الذي يصف حتى أدق التفاصيل ويتغلغلُ في ذات الشخصيّات, وبين الراوي المشاهد, والمشارك, ولكلّ منهم دلالاته الخاصة تتضِحُ من خلال الرؤيا التي تقدمها حول المكان ," وأصرّ على أنْ يرافقهم خلال الجولة التي قاموا بها في أرجاء البيت الفسيح لتفرج على كل ما يحتويه. " [3] ونلاحظ هنا في معرض الحديث عن البيت أنَّ المكانَ يكشف لنا عن الفوارق الطبقية,

1 – رواية نساء البساتين, ص58.

2 – رواية نساء البساتين, 53.

3 – رواية نساء البساتين, ص63.

في المجتمع, فالبيت الكبير الواسع, والأثاث الفاخر, يدلّ على البرجوازية, وتكشف عن تلك العلاقات المفككة المبنية على التفاخر بَيْنَ الناس في البيوت, والمال...الخ.

ومن خلال الكثير من الحوارات التي دارت في المكان المغلق يُسْمَحُ لنا بالكشف عن مستوى العيش, ورصد العلاقات الأسرية, والاجتماعية, وطبيعتها, فبعض تلك الأماكن تمثّل الفساد, والخواء الروحي, والفكري, والديني, فيصبح المكان مليئًا بالمخاوف, والهواجس, وهذا ما سيكشف لنا عنه المقهى " وهذا النوع من البناء المكاني ( من البناء لمكان الرواية تستشف رؤية الراوي, والروائيّ على حدٍ سواء ولأهم ما يرى أنَّه مشكلة الإنسان )" [1], وهذا ما قدَّمه لنا المكان ( المقهى ) من خلال رصده للكثير من المواقف, والحوادث, التي انبجستْ عن رؤيا الشخصيّات التي كشفت بدورها عن رؤيا السَّالميّ, فقد حلّل هذا المكان الكثير من المشكلات وأهمها: رغبة الكثير من الشباب العرب في تحقيق حلمهم بالغربة, والهجرة يقول السارد: " **عند مغادرتي المقهى أُحييهما لكنهما لا تردان على تحيتي. إحداهما تواصل التطلع إلى ما حولها, متظاهرة بأنَّها لم تسمعْ شيئاً . أمّا الأخرى فتتفرَّس في وجهي كأنَّها تراني للمرة الأولى, وعندما أصل إلى المدخل يقترب مني النادل الذي يحلم بالهجرة, وقبل أنْ يودعني يذكرني بما طلبه مني منذ حينٍ لتحقيق حلمه...الخ** " [2], يكشف لنا المكان من خلال استنطاقه عن أكبر مشكلة تواجه الشّباب التونسي, وهي الهجرة من أجل تحقيق طموحاتهم ورغباتهم التي لم يستطعْ أنْ يحققها لهم الوطن, وكشف المكان أيضاً عن أنَّ المقاهي تعجُّ بالفساد, والرذيلة من خلال المرأتين اللتين تمثّلان المومسات بشكل عام, والنّادل الذي يمثّل حال الشباب التونسي الذي يحلم بتغيير الواقع المرير.

إنَّ**المقهى** يكشف لنا عن دور الغرب في احتضان الشباب العربي ؛ فدَوْرُهم "هو تنوير الأذهان العربيَّة, إلى ما يجب أخذه, لتتماشى مجتمعاتنامع الرَّكب الغرب؛ ولهذا يحاول الإنسان العربي الهجرة إلى العالم الغربي ؛ فقد لا تكون هذه الهجرة حقيقية بل مجازية ومعنويّة من خلال التأثُّر بعاداتهم, وبعلاقاتهم, وكلامهم ولباسهم, والرؤية هنا هي بيان مدى تأثر المجتمع التونسي بالغرب لا سيما فرنسا , وقد يكون الغرض من

---

1 – سيزا قاسم, بناء الرواية, ص103.

2 – رواية نساء البساتين, ص30.

وراء ذلك أنَّه في عقود خلت رَزَحتْ تونس تحت الاحتلال الفرنسي فانعكس ذلك على جلِّ حياتها, وأثَّرت بهم تلك الثقافة الغربيَّة, يقول السارد:

" تريد أن تطبق الشريعة إذن ؟

آه : أريد تطبيق الشريعة....

الآن؟ .. في القرن العشرين ؟

ثم يضيف تطبيق الشريعة فرض ...

تريد أنْ تعود إلى العصور الوسطى ؟

العصور الوسطى هي عصور الجهل والتخلف.

الإسلام لا علاقة له بالتخلف ..( يقول الموظّف ).. لا من بعيد ولا من قريب الإسلام دين علم وحضارة.

يحرِّك المعلم رأسه موافقاً قبل أنْ يقول: المشكلة ليست في الإسلام كدين.. المشكلة في الذين يتشدقون بالإسلام" [1]. أمّا هذا المشهد الحواري فيكشف لنا عن رؤية الشخصيّات وتناقضها حول الإسلام؛ فالمعلم يكشفُ عن نظرته للإسلام بأنَّه دين تخلُّف ورجعية, والموظف يرد عليه بأنَّ الإسلام دين حضارة وعلم , فيرد عليه الموظّف بأنَّه لا يُدين الدّين الإسلاميّ, وينتقده إنّما ينتقد من يسيئون للدين بأقوالهم وأفعالهم, وهذه الرؤية كما ترى الدّراسة قد تُمثّل وجهة نظر السَّالميّ للدين.

يُظهر لنا هذا الحوار داخل هذا المكان المغلق - عن الانغلاق الفكري لبعض الشخصيّات التي لم تعرفْ الإسلام حقَّ المعرفة , فهذا الحوار كشف عن ثقافتها, فحقاً الكثير ممن يدّعونَ الإسلام يُسيئون إليه بتصرفاتهم, ومعتقداتهم حتى في حواراتهم, وتشدقهم, فالدّين ليس هوية أو كلاماً بل هو روح وجوهر, مُفْعَمَةٌ بالعلمِ والثقافة والحضارة.

إنَّ بطل الرواية خلال عودته في هذه الإجازة يَصْطَدم بالواقع التونسي, في علاقاته, وفساده, وفي من يظهرون عكس ما يبطنون, ويتجلَّى التّناقض في ذات المرأة التّونسية؛ فالمرأة تسمع القرآن, و تسْمَعُ أناشيد في بيتها, وتعيشُ في الوقت نفسه مع

---

1 - رواية نساء البساتين, ص127.

رجل على أنَّه أخوها وفي النهاية يكتشِف الحيُّ أنّه عشيقها , ولا يمت لها بصلة, وهذا السلوك المُنْحَرِف أكبر دليل على التناقض؛ وهو يفسح المجال للطّعن في الدّين.

ويتَّضِحُ التناقض في شخصية إبراهيم فهو دائماً يصلي في جامع الزيتونة وهو رجل متزوج, ولديه طفل , ويحب زوجته , لكن عندما نُرَاقبه نكتشفُ أنَّه يلحق وراء مومس ويدخل معها إلى بيت مشبوه , ويمارس معها الرّذيلة, وهل هنالك أكبر من هذه التناقضات؟ وهذان هما أهم مكانين في الرّواية كان لهما جلّ الأثر في البناء الكلي للفضاء الروائي, كما ارتبط في كشف دواخل الشخصيّات.

**المكان المغلق في رواية ( جبل العَنْز ):**

إنَّ أهم الأماكن المغلقة الحاملة لدلالات متعددة في هذه الرواية هي:( المدرسة – البيت), وفي هذين المكانين " كشف عن الملامحِ العامة لطّبيعة الشخصيات, وتجليات هذه الملامح في تشكيل طبائع الناس, ومسالكهم, وقيمهم ؛ لأنَّ الإنسان وليد البيئة " [1], فالبيوت عادة تكشف عن طبائعِ البَشر وملامح حياتهم وأوضاعهم, حتى عن مدى اندماجهم بالمكان, أو الخوف, والنّفور منه . إنَّ (البيوت) في هذه الرواية كشفت عن مدى تأثير الغربة في الإنسانِ, وفي مدى استدعاء الذّكريات , وكشفت أيضاً عن الفكر لساكنيها يقول السارد: " قضيت ليلتي الأولى مع مرافقي . أثناءها عرفت أنَّه يُدْعى إسماعيل, أثارني بيته منذ دخلته بنظافته في قرية لها موعد مع عاصفة من الغبار, كانَ الأثاث مرتباً بعناية كبيرة, ولكن ما أدهشني هو ذلك الرفّ الخشبي الطويل الذي تراصت فوقه الكتب المجلدة.توجهت نحوها بدافع فضولي قوي وبدأت أتصفّحها, كتب التفسير والتاريخ, والفقه والأدب..." [2], من خلال الاستقصاء لهذا المشهد المكانيّ نجد أنَّه يعكس ثقافةَ شخصية إسماعيل ؛ فهو مثقف من خلال الكتب الموجودة في بيته, ومن خلال نظافة البيت على الرغم من أنَّه في قرية يسودها الغبار اليومي.

وللأماكن أهمية لدرجة كبيرة فهي " تحمل تجارب الإنسان وخبرته, وتَنْقُلُها إلى جانب الآخرين مُغلَّفة بالخيال في معظم الأحيان, أو معبرة عن حقائق مجردة, وتلقي

---

1 – محمد شوابكة, الإنسان والطبيعة في رواية النهايات " لعبد الرحمن منيف", جدلية العلاقة وشعرية الوصف, مجلة المنارة, آل البيت, مجلد4,ع3, 1999, ص316.

2 – رواية جبل العَنْز, ص14.

الضوء على الكثير من صورة الحياة ومشكلاتها" [1], فالمكان المغلق يدلّ على تجارب الإنسان التي تم خضت من رحم المعاناة, وتعبِّر عن الحقائق الواقعية التي يعيشها الإنسان في هذا المكان, وتسلط الضوء على المشكلات التي يمر بها الإنسان في حياته وَيَسْعى الروائيّ من خلالها لتغيير هذا الواقع. يقول السارد: " من النافذة كنت أستطيع أنْ أرى القمر بوضوح, كان مكتملاً في تلك الليلة, كُنْتُ أسمع الموسيقى...مرة أخرى يُفاجِئ إسماعيل أهل جبل العَنْز إنَّه فَرِحَ الآن ؛ فِرْقة موسيقية تزور جبل العَنْز...وأبي ألا يزال يحلم بدار واسعة ؟ " [2], في هذا المشهد امتزج الزمان مع المكان, والزمن هو زمن فيزيائيّ محسوس واستخدامه هنا مع هذه الصورة المكانية يدلّ على وطأة المعاناة التي يعيشها الأستاذ بطل الرواية , فهذا البيت الضيق يحدُّ من تفكيره, ويحد من إطلاق العنان لخياله ولكن هنالك بصيص أمل هي النافذة التي تسمح لهذا المكان أنْ يكون أكثر اتساعاً وارتفاعاً كارتقاء القمر في كبد السماء , ولعلّ هذا البيت بنافذته يَحْمل دلالتين الأولى تتمثل في حالة الانغلاق على الذّات والآخر, والثانية تتمثّل في فُسْحَةِ يستطيع المرءِ من خلالها أنْ يرى العالم. إنَّ صورة الانغلاق لا تُقدّم هُنا مكتملة؛ وإنَّما نلاحظ تطويراً وتزييناً لسلبيَّة الانغلاق.

عندما يتذكر الأستاذ والده وحلمه في امتلاك بيت واسع يعتصره الألم؛ لأنَّ البيت الواسع يدل على الوضع الاجتماعي والمادي الذي يتطلع إليه الكثير من الفقراء والبسطاء من أهل القُرى.

يقول السارد: " نهضت وأخرجت السكين ثم تقدَّمت منه... غرزت السّكين بكلِّ ما بقي لي من قوة في صدره...الخ" [3], يصور لنا السَّالميّ البيت عندما يكون مسرحاً للانتقام والفكر المغلق, فالبيت المغلق في مكان مغلق كقرية نائية يدلّ على شدة تأثير المكان على الشخصيات , فظهر هذا المكان موئلاً للثّأر ومسرحاً للانتقام. الأستاذ مُتعلم ومتنور, ولكن, كيف قام بقتل إسماعيل؟ وهو ليس من القرية أصلاً, فكان من

---

1 – سمير عبد الوهاب أحمد, أدب الأطفال, دار الميسرة – عمان – العبدلي, ط 1, 2006م, ص121.

2 – رواية جبل العَنْز, ص64.

3 – رواية جبل العَنْز, ص13.

المفترض أنْ تكون شخصية المعلم مغايرة لما ظهرت عليه من الانغلاق, وهذا ما يُسمى(**تحميل الشّخصية** ) بمعنى آخر أن يحمل الروائيّ الشخصية فكراً أكبر من ثقافتها, فللفكر المحدود, الضيق, يدلّ على التّناقض في شخصيّةِ الإنسان الريفي, وأثر البيئة والموروثات على صقل الشخصيَّة وانفتاح أفكارها.

أمّا المدرسة, فهي أقل تأثيراً من البيوت في المجتمع العربي, والريفيّ فبعض الأماكن " تُؤجّج الصّراع وتدفعه إلى الذروة " [1], ولكن هذا المكان المغلق, لم يكنْ له دور في تأجج الصراع, ودفع عَجلة الزمن إلى القمة. يقول السارد: " كانت المدرسة تتكون من قسم يتسع لثلاثين طفلاً. في باحتها تقوم شجرة توت لا يعرف سكان جبل العَنْز من غرسها... الخ "[2], والملاحظ في المقطع السابق الدّور الذي قام به المكان, يَتّضِحُ أنَّ هذه اللوحة الوصفية للمكان قامت بدور الوظيفة الإيهامية, فمن خلال وصف المدرسة هذا الوصف البسيط, اتضح دور المكان الإيهامي الذي يُكثر فيه الكاتب من التفاصيل والإمعان في الوصف الدقيق, بحيث إنَّ المُتلقي يُصدِّق, يقول السارد: " الفضاء أزرق وشفاف, والحرارة ثقيلة كعادتها في مثل ذلك الوقت.في أحد الحقول ثلاثة كلاب تركض منحدرة بين أتْلام بلون البُن, وعجوز منحن على محراث خشبي يجره حصان هزيل" [3], فقام الوصف السّابق بالإيهام , فقط, فلم يُقدَّمْ من خلاله منظور روائيّ ولكن له دلالة إيهامية بواقعية الأحداث؛ لإقناع القارئ بصدق ما يقول.

يقول السارد: " **كان مكان الحفل مُضاءً بفوانيس كبيرة, نصبت على البراميل.. . وأمام أبواب المدرسة أُقيمت منصَّة من الخشب** " [4], في المقطع السابق اسْتُخْدم الوصف أيضاً لتقديم المكان من خلال هذه المدرسة, وقد يحيل الروائيّ هنا إلى بساطة أهل القرية, فقد احضروا الراقصات, والمغني, والفِرقة, بأكملها, واختاروا المدرسة لتكون مكاناً للحفل, فهذا يدل على فكرهم البسيط, وفهمهم الخاطئ للتطور, واستخدامهم للمكان لغير ما وضع له وهو الخير, والعلم, والمعرفة, والتطور, والارتقاء , إنَّ أهل

---

1 – رواية جبل العنز, ص70.

2 – جلال الدين السيوطي, مقامة الرياحين, تحقيق سمير دروبي, ص81.

3 – رواية جبل العَنْز, ص 59.

4 – رواية جبل العَنْز, ص62.

القرية يتطلعون إلى التغيير ولا يعرفون كيفية الوصول إليه, فهم يحاولون خلق واقع جديد مرة واحدة, لكن طريقتهم للتّغيير كانت غير مناسبة وخاطئة, فلم يجدوا سبيلاً سريعاً للتغيُّر غير إحضار هذه الراقصات والفرقة من المدينة ذلك العالم الأكثر سعة ورحابة, محاولين بذلك خلق التّغيير المنشود لكن هيهات أنْ يكون لهم ذلك بهذه الطريقة, فانغلاق فكرهم, وفهمهم الخاطئ للتّطوُّر حال دون ذلك على ما قدّمته الرواية يقول السارد: " بَدأ الرّجال بدافع فضولي يجتمعون من بعيد حول المدرسة لمشاهدة ما يحدث ...الخ "[1], فأهل القرية بسطاء وفكرهم بسيط ومغلق , والفضول يدفعهم للقرب من هذا المكان المغلق, والرحب بالعلم, والمعرفة, لمعرفة صوت الضحك في المدرسة, فقد كان الطلبة يضحكون على الأستاذ ؛ لأنَّه يشبه في شكله (( المهرّج )) حتى إسماعيل أرسل لأهل القرية, وحذرهم من أنْ يستهزئ آباؤهم بالمعلم, وهذا يعكس دخول أول تغيير على القرية وهو العلم , والمعلم والمدرسة, فهم لم يتقبلوا هذا التغيير منذ البداية, بل جعلوا من المعلِّم أضحوكة ؛ لأنَّهم لا يقدّرون فضله ومكانته, وجهده في التنوير والتثقيف وتقدّم القرية.

**المكان المغلق في رواية ( عشاق بيَّة ):**

أسلفتُ سابقاً أنَّ هذه الرواية وقّعت على مكان مفتوح واحد وهو ( زيتونة الكلب ) فكانت جُلُّ الأحداث تجري في هذا المكان , وقدَّم هذ ا المكان رؤى كثيرة تم الحديث عنها.

وبالتالي فإنّ المكان المغلق في هذه الرواية لم يكنْ له تأثير في حركة الزمان, الشخصيات, والأحداث و الحبكات الصُّغرى, ولكن يجدر أنْ نلتفت إلى مكان يَحْمل غَيْر دلالة, وهو منزل عليّ وبيَّة... يقدّم السَّالميّ من خلال هذا البيت كما يقول سمير قطامي بشكل عام " نقداً لقطاعات المجتمع, وأخلاق الناس" [2], وتعامل الأزواج مع زوجاتهم, فالمرأة مخلوق له كيانه ووجوده يجب أن يحترم.

---

1 – رواية جبل العَنْز, ص 34.

2 – سمير قطامي, الحركة الأدبيَّة في شرق الأردن, مطبعة السفير,عمان–الأردن دط, 2009 ص226.

في هذا البيت سيدة تعامل معاملة سيئة, فلا احترام ولا تقدير وتعبِّر الرواية عن ذلك بالقول: " وما يزيد من حزني وألمي أنَّه لا يتوقف لحظة واحدة عن شتمي صحيح أنَّني (شقفة بول) كما يقول, وصحيح أنَّه تكرم علي وقبلني زوجة له, لكن الله لا يحب أنْ يشتم الرّجل امرأة مسكينة مثلي لا حول لها ولا قوة ؟ وهل يليق برجل في مقامه عرف الدنيا وخالط الناس أنْ يهين امرأة مسلمة مثلها مثله؛ لأنَّه ا كانت متروكة فجاء هو وتفضل عليها بالزواج ليسترها؟ أين الرحمة التي أوصى بها الرحمن؟"[1], لقد كان عليّ يضرب بيَّة ويعذبها بالحذاء ويهينها على الرغم من أنَّه رجل عربي مسلم مطلع ومتنور وقد سافر كثيراً وعرف الدنيا, لكنه ينظر إلى المرأة على أنَّها سلعة رخيصة لا قيمة لها ولا احترام في هذا المجتمع الذكوري الظالم للمرأة كما تقول سيزا قاسم بشكل عام: " فالانغلاق في مكان واحد دون التمكن من الحركة يزيد حالة العجز وعدم القدرة على الفعل أو التفاعل مع العالم الخارجي يضيق المكان الحابس فيصل إلى مجرد غرفة "[2], كما حدث مع عليّ وبيَّة.

فعليّ كان على الرغم من أنَّه رجل يعرف الدنيا وحل وارتحل , إلا أنَّه لم يستطعْ الحركة إلّا في المكان الضيق وعَجز عن التغيير, ولزوم حالة الجمود, والتّخلف الفكري في إهانة المرأة ومعاملتها على أنَّها جارية لا قيمة لها, فكأنّه يعيش في غرفة تعزله عن العالم بأسره , تضيق به وبفكره, وكلِّ حياته , وهذا يدلُّ على أثر المكان المغلق في الشخصيّة وتشكيلها لبيئته النّفسية والاجتماعية ...الخ.

فالبيت يتحدث عن حال ساكنيه وتعاملهم مع بعضهم البعض, ويكشف عن أفكارهم وإنجازهم ومواقفهم من الحياة. فقد ذكر السَّالميّ أسماء أماكن حقيقية في تونس منها (العُلا – ح فوز – النّعوش ...) وغيرها , " فإنَّ اختيار أسماء حقيقية للمدن والأحياء والشوارع يُعطي القارئ إحساساً بأنَّه يستطيع أنْ يتحقق من, وجودها وأنْ يذهب إلى زيارة هذه الأماكن "[3], وهذا هو الإيهام بالواقع, فالسَّالميّ ذكر الكثير من

---

1 – رواية عشاق بيَّة, ص168

2 – سيزا قاسم, بناء الرواية:دراسة لثلاثية نجيب محفوظ, دار التنوير للطباعة والنشر,بيروت–لبنان ط1, 1985 ص103.

3 – سيزا قاسم, بناء الرواية, ص 113

أسماء الأماكن, والأحياء الشّعبيّة والم دن في تونس, وغيرها فهذا يدلّ عليها ويعكس إحساساً بواقعية الأحداث لدى القارئ , بَيْدَ أنَّ هذا لا يَعْني أنَّ حقيقة الأسماء تجعلها مرسومة رسماً دقيقاً في العمل الفنيّ, وإنّما تأخذ أشكالاً يريدها الكاتب, فتونس في الرواية شيء وفي الواقع شيء مُخْتَلف.

**المكان المغلق في رواية ( صورة بدوي ميت )**

إنَّ للمكان المغلق تجلياته الخاصة التي تختلف نوعاً ما عن المكان المفتوح ," والأماكن عندما تبغي أنْ تكون متاهَات تُعَادِلُ في إنجازها وتبينها من قبل المستمع والقارئ للتحصيل المَعْرفيّ "[1], والمكان المغلق يكون بمثابة متاهة تَنقُلُكَ من مكان إلى آخر ضمن دائرة مغلقة فهي بذلك التبيان, والاختلاف, تقدّم للقارئ التحصيل المعرفي حول رؤية المكان من زوايا متعددة.

أمَا الأماكن المغلقة في الرواية التي قدّم من خلالها رؤيا أهمها : ( البيوت – المقهى – الفندق – المسرح – الصالون – الصحيفة) , هي الأكثر تأثيراً, وسوف تبين الدّراسة أهم الأماكن التي قدّم من خلالها مَعْنىً وأثَّرت في بناء الأحداث وتشكيل الشخصيات, فالمكان يتضافر مع كثير من عناصر الرواية " وكلّ العناصر التي تشكّل عالم السرد واللغة والأحداث والشخصيات" [2], فالمكان جزء لا يتجزأ من تلك البنية المتكاملة التي يقوم عليها العمل الروائي.

**(البيت):** إنَّ البيت من خلال حبيبة (صالح), يدلّ على الفساد, والتحر ر, يقول السارد: " لما وصلنا البيت جلسنا على الكنبة... بدأتُ أستعيد ما حدث محاولاً أنْ أجد ترتيباً يساعدني على تكوين رؤية واضحة لِما عشناه في ذلك اليوم...شعرت في رغبة قوية أنْ أفعل أو أقول شيئاً يخفف من حزن هـ."[3] تراجع حبيبة صالح ( ليلى ) شريط ذكريات ذلك اليوم الذي أسمته الخميس الأسود عندما كان الجنود يطلقون الرصاص على المتظاهرين, وقتلوا منهم من قتلوا فهي تحاول في هذا المكان المغلق أنْ تفهم ماذا

---

1 – محسن جاسم, الموسوي, الرواية العربيّة النشأة والتحول, منشورات مكتبة التحرير, بغداد, ط 1, 1986م, ص282.

2 – حامد قنيبي, نقد أدبي حديث, دار كنوز المعرفة, دط, دت, ص97.

3– رواية صورة بدوي ميت, ص116 .

حدث؟ ولماذا حدث؟ فقد كان هدفها التخفيف من وطأة الحزنِ, والخوف الذي عاشه صالح في ذلك اليوم.

ارتبط هذا المكان بالذكريات المؤلمة التي يعيشها الإنسان حول الموقف الذي قد يعيشه في ذلك العالم المفتوح, فالمكان هنا يخفف من معاناة الإنسان, ويخفف عليه هول ما حدث له وشاهده بأمّ عينه, ويزيل الأثر النفسي الذي علق بتلك الشخصية. فللبيت أليف, ومصاحب, ومصادق للشخصية, من خلال ( ليلى ) التي حاولت التخفيف عنه, وتطمئنه, بأنَّ الجثة التي داس عليها ليست جثة طفل مما كان قد أثر في نفسه كثيراً, فالمكان هنا قادر على التغيير من خلال ساكنيه, فقد بدَّل المكان خوف صالح إلى راحة, وهدوء, وطمأنينة, فقد أفلح بها المكان, عندما كان أنيساً وعاطفياً ومحباً لمن يألفه من خلال تأثيره على ساكنيه الّذين مثّلتهم ( ليلى ).

إنَّ البيوت تدلّ أيضاً على الوضع الاجتماعي لساكنيها يقول السارد: " بيوت فخمة بيضاء كأنَّها طُليت في التوي بالكلس تتوزع هضبة قرطاج " (1), فالبيوت الفاخرة التي وصفها تدل على حال ساكنيها ووضعهم الطبقي.

أمّا **الحِوَار** الذي دار في السيارة بين (صالح – سائق التكسي), في هذا المكان الضيق والمغلق, المتحرك, فنستشف منه نقداً للأوضاع السياسية, والاجتماعية ونقد رجال الشرطة المتسلطيّن, وغطرستهم يقول السارد: " ابن الكلب... كل شرطيّ في هذه البلد يتصور نفسه رئيساً للجمهورية, ...الخ " (2), فهنا يعكس واقعاً روائيّاً لتونس ويأمل إلى تغييرها.

أمّا التجربة التي عاشتها ( ليلى ) بكل تفاصيلها منها: اليومية, والجنسيّة فَقَدْ كانت دون رباط رسمي **يقول السارد : "دامت تلك التجربة سنتين وبضعة أشهر كانت السنة الأولى رائعة, وفي الصباح أتركه في البيت نائماً فقد كان يقضي جزءاً هاماً من الليل في المطالعة** "(3)؛ ولذلك فإنَّ المكان يدل على الفساد, والتحرُّر, فهو فاسد بفساد ساكنيه, ومكان معادي للشخصية على الرغم من أنَّ صالح كان يحترمها,

---

1 – رواية صورة بدوي ميت, ص16

2 – رواية صورة بدوي ميت, ص101.

3 – رواية صورة بدوي ميت, ص 117 .

ولا يحتقرها, وهنا تقدَّم لنا صورة واضحة عن طبيعة العلاقات في المجتمعات الغربيَّة التي تأثر بها حتى الشّباب العربيّ, العلاقات التي يسودها الفساد, والانحلال من رباط الدين, والمبدأ, والتقاليد, والأعراف, فالبيت يعكس الواقع لبيت غربيّ وشدة تأث يه على الشباب العربيّ الذي تربوا على قيم وتعاليم مغايرة لما هو الحال عليه هناك.

فصالح اعتنق المكان, وتأثر به بكل ماهيته التي كانت عليه, يقول السارد:

"**منذ البداية أعترف أنَّني استسلمت له في المر ة الأولى التي دخلت فيها بيته, ومنحته جسدي كما لو أنّني أمنحه لشخص أحبه منذ أعوام لقد شعرت بلذة هائلة, فارتعش مثل قصبة في الريح**"(1), إنَّ ليلى جعلت من البيت مستودعاً لفكرها, لعاطفتها لسيل ذكرياتها, لمغامراتها مع صالح, فالمكان جعلنا نعيش مع تلك الشخصية ونتعاطف معها من خلال سذاجتها, أو ننتقدها تارة أخرى ولا نبرر لها أفعالها.

**(مقهى باريس) :**

إنَّ النظرة إلى المقاهي كما ورد في الرواية هي سلبيَّة, وتشير في الغالب إلى الأشياء السِّيئة يقول السارد: "**ومقهى باريس مزود بالمخبرين, والمومسات وباعة الفستق واللوز, وَعُمَّال المطاعم يستقبلون الزبائن بابتسامة باهتة, يغيرون طاولاتهم في استمرار؛ خوفا من المخبرين. والمخنثين والمومسات, يتنقلون بين الطاولات** "(2), المكان هنا يشي بالانغلاق والسّرية والتّحرر, والفساد, وكأنّ السَّالميّ يقدّم لنا رؤيا بأنَّ المقاهي أماكن فساد, وفراغ ديني, ونفسي, وروحي, لا تقدِم لتلك الشخصيّات إلا الشّر فلا فائدة منها كما تجلّت في الرواية.

**(القبر):**

فالقبر مكان مغلق بكل ما تحمل الكلمة من معنى فهو النهاية المحتومة, وهو مصير كلّ إنسان حتى وإنْ طال الزمان, فعلى الرغم من أنَّ صالحاً قد تنقل في حياته بين القرية , والبادية والمدن والمقاهي , والسفر إلى عالم مفتوح مثل فرنسا, وتلذَّذ بجماليات الحياة فكانت نهايته دخول هذا المكان المقفر. إنَّ السَّالميّ قد جرّد من القبر شخصاً جعل صالح يخاطبه عندما دخل المقبرة ووقف أمام قبر أبيه مخاطباً إياه

---

1 – رواية صورة بدوي ميت, ص7.

2 – رواية صورة بدوي ميت, ص 33.

جاعلاً منه موئلا يلجأ إليه؛ لأنّه يدرك نهاية كل إنسان الموت الذي قد يكون به راحة من أعباء الحياة يقول السارد: "أبي...ها قد أتيت..قلت: هل تعتقد أنّه يسمعك؟ قال بلهجة واثقة: نعم...أشعر كما لو أنّني أخفف من وحدته" [1], ويتجلى المكان بصورة الصديق الذي يلجأ إليه صالح ويخاطبه ويتحدث إليه وهو واثق كل الثقة أنّه يسمعه, ويفرح بمجيئه, فلم يكن المكان المغلق مجرد مساحة تجري فيها الأحداث إنّما كان بمثابة نظام من العلاقات التأثيرية والتأثُّرية فأصبح المكان وسطاً حيوياً تتجسم من خلاله حركة الشخصيات, فثمَّة علاقة تبادلية بينهما, فالأول وفي بوعده ويزور والده الذي توفى منذ سنوات عديدة, والآخر يفرح بزيارة ولده الذي لم يَنْسَهُ على مر السنين, فإنَّ خَلَقَ المكان المغلق علاقة تبادلية بين الشخصيات ووطد بينها, وخَلَقَ جواً من الألفة بينهما يقول السارد: "**أتيت رغم الحرارة..أكاد أحترق..ولكنّني أتيت لأثير غيرتك بالمجيء إلى البيت الذي لا يزال كما تركته... وأمي بخير...لكن العالم يطبق, والهموم, تكاثرت**"[2], فصاح يخاطب والده القابع في القبر, ويتحدث له عن واقع العباد التي ضاقت به م الدنيا, والهموم التي تكالبت عليه فقد وجد في هذا القبر سبيلاً لأنْ يتحدث له عن همومه وأحزانه وكأنَّه يريد أنْ يتحدث لشيء مجهول يلقيها عليه ويخفّفُ عَنْهُ ما علق في نفسه من هموم ومتاعب, فقد جعل للمكان (القبر) معادلاً للشخصية عندما جرد منه شخصاً يخاطبه صالح , ويشكو إليه ما حل به من ضيق العالم الخارجي, وكأنّه يقول لوالده: لقد ارتحت من ذلك العالم الضيق الذي يزيد ضيقاً أكثر فأكثر, فالمكان شاطره حزنه, وشكا له, وأسقط عنه هذا الكبت الذي لم يستطع أن يقوله إلا للميت داخل قبره؛ لأنَّه لم يجدْ من يشعر به ويفهمه في هذه الحياة التي عاشها في الشرق, والغرب, فالمكان كله مفتوح أو مغلق لا يَخْلو من سيئات , لا فرق بينهما بل كلاهما يشترك بالضيق.

**المكان المغلق في رواية ( أسرار عبدالله ):**

أمّا رواية أسرار عبدالله فيشي عنوانها أصلاً بعلامة "السريّة" التي لا يمكن أنْ تكون إلّا في فضاءات ضيّقة معزولة ومغلقة, ويتجاوز الانغلاق هُنا مَسْألة الجغرافيا

1 – رواية صورة بدوي ميت, ص 81–82.

2 – رواية صورة بدوي ميت, 82.

فقط؛ إذْ تَنْعَكِس نفسية البطل السارد/عبدالله على المكان فيصبح مليئا بالأسرار, أسرار يعيشها الآن, وأُخرى غلَّفت حياته الماضية, تقدم لنا من خلال استرجاعات خارجيَّة– كما سنرى, وبقطع النظر عن ماهيّة الأسرار التي تكون وُضِعَتْ أصلاً لوظيفة تشويقيَّة, تدفع المتلقي إلى المتابعة, زيادة على وجود فترات زمنية يغلفها الغموض في سيرة عبدالله, بقطع النظر عن كلّ ذلك فإنَّ العنوان مُفْعَمٌ بالتوتُّر الذي يثير قلق القارئ ويستفزُّ مخيِّلته, ويحيل بالضرورة إلى حَيّز مكاني مُنْغَلق, فقد قدّم المكان عرضاً جميلاً ولعلَّ أهم هذه الأماكن هو ( البيت ) , وهنا يقدم لنا السَّالميّ رؤية جديدة عن البيت الذي كان من المفترض أنْ يكون مكاناً أليفاً وحضارياً دافئاً لأي شخص سواء في الرواية أم في الواقع, إلا أنَّ السَّالميّ قلب الرؤية عندما وظف المكان على أنّه معاد ويتضح ذلك من خلال أحداث الرواية ؛ لأنّ بعض البيوت تمثل " للشخصيّة الخوف والقلق والاضطراب, والتشتت الذهني وخصوصاً في مكان أكثر انغلاقاً"[(1)],وهو (الغرفة) وهذا يمثل الحالة التي وصل إليها عبدالله في بيته, وداخل غرفته المليئة بالأسرار, والمفعمة بالقلق والخوف.

إنَّ لهذا العنصر المكاني أهمية كبيرة لما احتله من مكانة داخل الفضاء الروائي برمته, فقد رسم السَّالميّ صورة من صور التدمير الطائش العابث التي تتجسد في شخصيّة عبدالله, فقد صور المكان الحالة التي كان يشعر بها عبدالله وهي الاغتراب الداخلي, والخارجي مع المجتمع الذي يعيشه, فقد أراد من خلال المكان رصد ذكريات عبدالله وأسراره العابثة التي كان يعيشها عندما كان يعمل دركياً في حفو ز, فالمكان ارتبط بإحساس الشخصية؛ فمثَّل العزيمة واليأس .

يقول السارد:" **يتمتم كأنّه يخاطب نفسه: الأَرْضُ هي كلُّ شي ء .. والذي لا يملك الأرض لا يملك أي شيء حتى لو كان عنده كل مال قارون..**" [(2)], في هذه اللوحة الحوارية مع الذات داخل المنزل تمثّل الأرض لعبدالله الهُويَّة التي يحقق فيها ذاته, وتحدد الملامح المشتركة بينه وبين الوطن, فالأرض هي الوطن, فلا يُغْني شيء عنها

---

1 – روجن آلن, الرواية العربية, ترجمة حصة منيف, المؤسسة العربية للدراسات والنشر,ط 1 , 1986, بيروت, ص67 .

2 – رواية أسرار عبدالله, ص 24.

فالمكان يدلّ على شدة تعمقه, وحبه للأرض يعني حبه للوطن, هو لا يشعر بذاته إلّا لهذا المكان الذي رسم له صورة لا تكاد تفارق خياله, فالأرض هي الخير, والخصب, والعطاء, والنماء, وهي الهُوية التي تثبت وُجودَهُ وجذورهُ الممتدة فيها, وهي التي يحتفظ بعقودها في صندوق أسراره, فكانت الأرض بالنسبة له سِرَّ وجوده الذي لا يحب أنْ ينازعه عليها أيّ منازع فهي عالمه الخاص ," والعلاقة بين الريفي والأرض علاقة الطفل بأمه " (1) . وثمَّة علاقة أليفة فَذَّة تربط بَيْنَ عبدالله والأرض؛ لذا كان مطلبه المُلِحُّ الغوص في أعماقها, والموت فيها؛ إذْ رغم التهديد الذي يتعرض له من عصابة (الغرابة)؛ فإنَّه متشبث بالأرض يرفض بعناد جليّ التّخلي عنها, وارتباط عبدالله بالأرض" يتجاوز الانتماء إلى التداخل والالتحام التّام" (2), فهو شديد التعلق بإرضه ويعشقها إلى حدٍ بعيد.

يقول السارد" الذي يزيد من فخره واعتزازه هو ما تحتويه غرف الممشى الأربع المتقابل من أثاث, يثير إعجاب كل الّذين أتيحت لهم فرصة دخولها. طاولات خزفية, سرير وكرسي زراعي, مزهريات , زرابيّ, وراديو, لم يحرمْ نفسه من أي شيء, كل ما كان يعتبره ضرورياً للبيت ولمقامه اشتراه... "(3) تقدم هذه اللوحة الوصفية وظيفة جمالية في استخدام اللغة وعرض المكان بها أيضاً وظيفة إيهامية بواقعية الأحداث, بحيث يجعل القارئ يصدق هذا العالم من خلال وجود الأثاث في البيت.

إنَّ البيت بالنسبة لعبدالله هو مصدر فخر؛ لأنَّه من أجمل البيوت في الدُّوَّار فقد كان يشتري كل ما ينقص البيت وهذا يدل على وضعه الطبقي في مجتمعه ؛ حيث إنَّ البيت يثير إعجاب كل من يدخله ؛ لأنَّه رُبَّما يكون أفضل بيت في القرية, وهذا يدل على الفوارق الاجتماعية بين الطبقات, فالبيت يمثل لعبدالله مقامه ؛ فكلما كان البيت والأثاث فاخراً سَمَتْ قيمته بين الناس , وعلا مقامه, وَجُلُّ هذه الماديات حُرم منها أهل

---

**1** – مصطفى التواتي, جدلية الريف والمدينة في القصة التونسية, دار محمد علي الحامي, تونس, الطبعة الأولى, 1992, ص107.

2– محمد القاضي, الأرض في شعر المقاومة الفلسطينية, الدار العربيَّة للكتاب, ليبيا, تونس,1982,ص 121 .

3– رواية أسرار عبدالله, ص40

القرية, لوضعهم المتردي . إنَّ الغنى والثروة لا يمكن أنْ تَحُول بَيْنَ الإنسان والتعلُّق بالأرض الأم, ومع ذلك؛ فإنَّ ثمَّة فجوة بين البطل والمنزل, تخلق أحياناً نوعاً من العُزْلة يقول السارد:

"**صندوق أبيض مستطيل ضخم: هكذا تبدو الدار لعبدالله حين ينظر إليها من بعيد** "[1], وهذا يدل على حجم الاغتراب الذي كان يشعر به عبدالله حتى في **بيته**, لم يكنْ له مهد أمان ؛ ومرد ذلك الخوف عند سماعه بالعصابة التي أرادت الانتقام منه, فقد كان يختبئ في الحمام خوفاً منهم, فالبيت ضيّق من خلال خوفه وقلقه, حتى عندما كان ينظر إليه من بعيد كان يراه كالصندوق الكبير, وهذا يدل على شدة معاناة الإنسان فالمكان ضاق بضيق حالة ساكنيه, وأصبح معادياً له, ومصدراً للخوف عندما كان لا يطمئنُّ إلى آخر الصباح عندما يخرج إلى الحقل أو إلى السوق, فأثَّر المكان بنمط تفكيره, ورؤيته للأشياء من حوله, فالمكان يُف سّرِ العلاقات, والتصرفات للأفراد, في بيوتهم, ومجتمعهم, بمعنى آخر المكان يكون حسب نظرة الإنسان له فقد يراه أليفاً, وصديقاً, وقد يراه مخيفاً, وعدائياً بحسب الظروف التي أدت إلى تشكيل نظرته لهذا المكان.

وعبدالله هو اسم البطل التي تدور جلّ أحداث الرواية حَوْله, فتلك الأسرار كانت الباعث لشخصيّته, والمحرك للأحداث, فقد كان ت جلها تدور في بيته, وغرفته بالتحديد, فالبيت هو المكان الحامل للأفكار, والهواجس والاضطرابات وكل ذلك يدل على تبادل العلاقات بين الإنسان والمكان وهي علاقة تأثيرية.

إنَّ الحيز الضيق يجعل أحداث الرواية تتبلور لخدمة هذا المكان لتتضح تلك الملامح الهلامية التي كان من الصعب تحديدها إلّا من خلال المكان وفهمه, والتعمق فيه... إنَّ هذا المكان هو الموئل لتلك الأفكار, والأسرار, التي تبعث القلق, والخوف, والانهزام الداخلي. قد كانت الغرفة بمثابة مصور ناقل لكل جزء في حياة عبدالله, و ترى الدراسة أنَّ السَّالميّ كان يستمد أفكاره من خلال هذا المكان الضيق المرتبط بالشخصية, ممزوجاً بالزمن الفيزيائي, أو زمن المعاناة.

---

[1] – رواية أسرار عبدالله, ص39.

كان عبدالله ظالماً في ماضيه أثناء عمله, كونه كان يعمل دَركياً ولديه سلطة كما جاء في الرواية وهذا الظلم امتد معه في كل مكان يذهب إليه , ومع امتداد الزمن ومع بقاء أثره في نفسه وفي نفوس الآخرين, قدَّم لنا السَّالميّ إضاءات لشخصيته من خلال الحوارات الداخلية, والخارجية داخل المكان يقول السارد: " تعالي . تعالي . لا تتركيني وحدي ... وأخرجيني من هذه الح فرة, بدونك لن أخرج منها سأظل مدفوناً بها حتى الموت ها أنا أمد لك يدي فمدي لي يدك " [1]. إنَّ البيت يمثّل الوضع النفسي الذي كان يعاني منه عبدالله فهو يشعر أنَّه يعيش في حفرة لا يمكنه الخروج منها إلّا بمساعدة زوجته السابقة ( **العكري**) , التي تُشكِّل مصدر اطمئنان له , وهذا يدل على شدة المعاناة والاغتراب, فالمكان مليء بالدلالات الإنسانية منها أنَّ الإنسان لا قيمة له إلا بمحبة الناس وأ هله, والإنسان مهما علا فلا يمكن أنْ يستغني عن الناس , فيبقى محتاجاً لهم حتى لو كان غنيا, ووَصَف السَّالميُّ المكان , وصفاً يكشف تأثير المكان على ذات الشخصيات , فالمكان يكشف الذات الإنسانية , ويعلل شعورها, وإحساسها, ويكشف عن أثر المكان في النّفس , وهذا ما كَشَفتْ عنه الدّراسة, وهو وقع المكان على الشخصيّة وتأثير كل منها بالآخر.

تلك أهم الأماكن التي قدَّمت دوراً مهماً في الرواية أمّا بقية الأماكن المُغلقة فكانت بمثابة حشو مثل"( البئر– الزريبة– الخيام– القيروان..الخ), فلم تؤدِّ غير الدّور الإيهامي بوجودها, وبتعددية المكان.

---

1 – رواية أسرار عبدالله, ص133.

## الفصل الثاني

## المكان وعلاقته بالشخصيات وتأثير كل منهما في الآخر

### 1.2 المكان والشخصيات

إنَّ المكان هو الأكثر التصاقاً بحياة البشر ؛ لأنَّ تلك العلاقة, علاقة جدلية منذ قديم الزمان ؛ ولأنَّ إدراك البشر, ووعيهم بالمكان يختلف من شخص إلى آخر؛ فمنهم من يؤثِّر في المكان ويشكِّله على وَفْق أهوا ئه وينمّي بينه, وبين المكان علاقة حميمة, وعلاقة صداقة, وألفة . ومنهم من يشكله المكان على حَسَب بيئته , وقد يكون ذلك المكان غير مرغوب فيه , فتحاول الشخصية الانفكاك من أسْرِه, والتّخلُّص من قَيْده الدامي.

إنَّ اختيار المكان, و تشييده يعتمد اعتماداً كلياً على بناء الشخصيّة, فمح بة المكان والانتماء إليه, تحدد طبيعة تلك الع لاقة بين الألفة, والغربة. المكان يُعدُّ العنصر الأساسي من عناصر العمل الروائي, ويقدِّم دوراً كبيراً في صقل الشخصيّات, وبنائها, فيغدو عُنْصراً من شبكة من العلاقات التي تربط بين عناصر العمل الروائيّ, فالمكان هو المحرك للأحداث, والمُشكِّل للشخصيّات, فيشكِّل فكرها, وعلاقتها م ع غيرها من شخصيّات, ويحدد سلوكها, ويرصد علاقاتها في مجتمعها.

والأماكن منها ما يرتبط بالحالة الشّعورية, وُيفعِّلُ العلاقات في الفضاء التي تتحرك فيه الشخصيّات, فكما أسلفتْ الدّراسة حول المكان, فهو ليس مجرد إطار تدور فيه الأحداث , وتتحرك فيه الشخصيات , بل يكون في بعض الأعمال هو السبب في وجودها , فالشخصيّة مهما انتقلت من مكانها الأصلي إلى مكان آخر, يبقى تأثير المكان الأول الذي عاشت فيه وتشربت قيمه, وعادات أهله حَيّاً, وخاصة إذا كان هذا المكان مصدر ألفة , ونجح في جذب تلك الشخصية إليه ؛ عندها تكون العلاقة أكبر, وأعمق وأكثر تأثيراً, وتأثُّراً. إن المكان يكشف عن شخصية الإنسان, بينما يعطي الآخر للمكان قيمة من خلال تجربته فيه, فالمكان قطعة شعورية وحسية من ذات الشخصية نفسها.

## 2.2 تأثير المكان في الشخصيّات

إنَّ للمكان تجليَّاتِهُ, وتأثيراته على البشر القاطنين في محيطه, وَيُعْدُّ في الكثير من الأحيان القلبَ النابضَ للشخصيَّة والمحرِّك لها ," فتبدو علاقة الإنسان بالمكان علاقة حميمة جداً, فالمكان عُنْصُرٌ سيميائيّ مشحون بالقيم والدلالات الروحية, وحضوره يتغلغل في أعماق الشخصيّة " [1].

وتكون العلاقة بين الإنسان والمكان علاقة حميمة, ويكون المكان رمزاً للكثير من الدلالات, التي يحملها في طياته, سواء كانت دلالات حضاريّة ثقافية عامَّة أو دلالات نفسيّة خاصَّة بالشخصيّة, وكلّ تلك الدلالات تتعمق في النفس الإنسانية وتشكِّلها على وفق ما هي عليه, تشكيلاً ينسجم وفق ماهيته ا, والمكان قد يشكِّل بنية الإنسان الجسديّة, والنفسيّة, وفكره ونمط حياته كلها.

و يرتبط المكان بإحساس الشخصيّة على وفق تنوع تلك الأمكنة, وامتلاء تلك الأماكن بالدلالات التي تشحن المكان, فيعيش فيها البشر كما هي , وَيُمْلِي المكان تلك الدلالات , ويؤثر بشكل جلي على نمط حيا ة الإنسان وسلوكه, وقد تعيش الكثير من الشخصيّات على هامش الحياة , يؤثر المكان فيها , وهي بدورها تتلقى تلك التوجيهات, ولا تقدِّم للمكان أيَّ شَيْءٍ فبعض الشخصيات يكون " فيها أبعادٌ نفسية واجتماعية وفكرية " [2], وعلى النقيض من ذلك , فبعض الشخصيات المُحمَّلة بالأبعاد النفسية والاجتماعية, والفكرية يكونُ لها أثرٌ جليٌّ في المكان الذي تعيش به, فهي بالتالي سوف تساهم في تغييره وفق أهوائها؛ فتكون العلاقة بينهما تبادلية : فبقدر ما يقدم المكان للشخصية من فكر ودلالات عميقة , فهو بدوره يقدم لها, ويغير فيها ويحملها فكره , ولكن في جميع الأحوال يكون تأثير المكان أكبر فيشكل الشخصيّة بكلِّ أبعادها, ويحَمِّلُهَا ما يَحْمِل هو في طياته التي تكشف شدة هذا التأثير.

---

[1] – محمد عزّام, شعرية الخطاب السردي, منشورات اتحاد الكتاب, دمشق, د.ط, 2005م.ص73.

[2] – عمر عبد الرحمن السّاريسي, مقالات في الأدب الإسلامي, دار الفرقان, عمان– الأردن, الطبعة الأولى, 1996م.,ص123.

وفي هذه الدراسة سَوْفَ يُكْشَفُ عن تلك العلاقة المتبادلة تأثُّراً وتأثيراً بين المكان, والشخصيّات في الروايات الخمس المختارة للسالمي.

إنَّ تأثير المكان في الشخصيّة له ملامح تتجلى في سلوك الشخصيَّة, وسماتها الجَسَديَّة, ولغتها ونبرة صوتها... " إنَّ المكان لا يؤثر في نفسيّة الشخصيَّة فقط, بل على ملابسها, ونبرة صوتها وإلقائها ؛ فاللغة والنبرة والنّغمة في مكان العمل أو المسجد غير تلك التي تتحدث بها في المقهى أو السوق " [(1)] فتأثير المكان ليس له حدود , فيؤثر بكل شيء في حياتنا, يؤثر في طبيعة ملابسنا, فمثلاً عندما يكون البَشر في بيئة محافظة فتلقائيَّاً سوف تكون طبيعة اللباس محافظة, والعكس في البيئة المتحرِّرة في المدن, تفرض سطوتها على الشخصية , وتشكِّل حتى طبيعة لباسها, وكذلك صوتها يختلف باختلاف المكان فعندما تكون في أماكن هادئة, غير ما تكون في مكان صاخب. فطبيعة المكان تحدِّد حتى نبرة الصوت انخفاضاً, وارتفاعاً, نبرة فيها حب وحنين, نبرة فيها حزن وخوف, وكره ونظراً لسطوة المكان " فلا تطيق معظم شُخوص الرواية البقاء في المكان الواحد " [(2)], والكثير من الشخصيّات في عالم الروايات, أو حتى في العالم الواقعي الذي نعيشه, تحاول دائماً التخلص من هيمنة, وسطوته المكان الواحد فهي لا تطيق أنْ تقضي جُلَّ حياتها في مكان مُحدَّد, بل تحاول الخروج من هذا المكان الذي قد يكون ضيقاً على الأغلب , إلى مكان أكثر رَحَابةً واتساعاً, وحتى لو كان هذا المكان الواحد أليفاً إلّا أنَّ طبيعة النفس الإنسانيّة تحبُّ الانتقال إلى الكثير من الأماكن , لترى ذلك العالم, وتطلع على ملامحه, وتستقطب منه ما تستقطب من أفكار, ومعالم, وملامح, لتغيير ذلك العالم المحيط بها, فتلك الشخصيّات في الرواية تحبذ الانتقال؛ لأنَّ هذا" الانتقال من مكان إلى مكان يصاحبه تحوُّلٌ في الشخصيّة" [(3)] هذا التحول يقود الشخصية من الفكر الذي جعلها مُتَقَوْقعة على ذاتها, إلى فكر آخر,

---

1 – أمينة بوطولة, جمالية المكان الدرامي في النص المسرحي الجزائري, رسالة ماجستير, جامعة وهران, الجزائر, 2016، ص85.

2 – محمد القواسمة, البنية الروائية في رواية(الأخدود, مدن الملح) لعبد الرحمن منيف, دار الينابيع للنشر والتوزيع, عمان, 1998م, ص 98 .

3 – سيزا قاسم, بناء الرواية, ص103.

ومنطلق جديد, يكون بمثابة المحرك الداعم لها ويشكِّل تلك الشخصية, ويؤثر في علاقاتها مع غيرها, وبالتالي تتحرك الأحداث مع هذا التحول , وكلٌّ ذلك دالٌّ على أنَّ المكان مُؤْثِّر في الناس. نقرأ في "صورة بدوي ميت":

" انتبهتُ وأنا أنظر حولي إلى أنَّ الصالون واسع جداً, بالنسبة لشقة متواضعة في حيٍّ شعبيّ, وفيما بعد أدركت أنَّ إحساسي بالاتساع يعود إلى أنَّ الصالون لم يكنْ يحتوي إلّا على كنبة وكرسيين وطاولة صغيرة " [1], في المقطع السابق يتبين لنا تأثير المكان في الشخصيّة, فقد شكل المكان نظرة الشخصية إلى الاتساع في هذا المكان, فقد كانت الشخصية ترى هذا المكان واسع اً, وأثبت لها المكان سبب الاتساع بأنَّ المكان لم يكنْ يحوي على الأثاث الكافي لملْء هذا الفراغ المكاني , وقد شكَّل أيضاً المكان مزاج الشخصيّة, وجعلها ترى هذا المكان الضيّق واسع اً, وهذا يدلّ على أنَّ المكان أثر في حالة الشخصيّة النفسيّة وأصبحتْ الشخصيّة تُمارس فيه سلطاتها وقوتها التي تنطلق منها إلى العالم الأوسع وهو العالم الخارجي لهذا الحيز الضيق ذلك إنَّ " تأثيرات المكان تتجاوز الأفراد, وتكشف عن الانتماءات الاجتماعية, وطرائق التفكير لدى الجماعات والكتل الاجتماعية " [2], فهذه سلطة المكان التي تكشف القناع عن فكر الأشخاص وتوجهاتهم, وبالتالي تكشف عن الانتماءات التي تنجرف وراءَها الشخصيّات مثل الانتماء الوطني, والاجتماعي مثلا لقبيلة أو الانتماء الديني ...الخ , كما أنَّها تنعكس على الأحاسيس والرؤى.

يقول السارد: " لقد اختفوا فجأة من المدينة التي كانوا يمل ؤنها بنفاياتهم, وهواجسهم, وخصوماتهم التي كانت لا تنتهي " [3] إنَّ المكان وهو ( المدينة ) وهذ ا المكان المفتوح امتزج فيه تأثير المكان بالإنسان, وتأثير الإنسان بالمكان, فلقد فرض كلّ منهم سطوته فالمكان كان يجمعهم ويتحاورن, ويتناقشون, وحتى كشف المكان عن هواجسهم ومخاوفهم, فكلّ ما سبق لا يدلُّ على العلاقة الحميمة بين الإنسان والمكان ,

---

1 – رواية صورة بدوي ميت, ص6.

2 – خالد حسين, شعرية المكان في الرواية الجديدة, مؤسسة اليمامة الصحفية, الرياض, الطبعة الأولى, 2000م , ص108.

3 – رواية صورة بدوي ميت, ص8.

فالمكان يحتضنهم وهم بدورهم يحرِّكون تلك الصورة الصامتة للمكان قبل أنْ تمارس فيه الشخصيّات حياتها , ويؤثِّر المكان بتلك الشخصيات ؛ فكأنَّ المكان عقد بينه وبين الشخصيّة علاقة أُلفة فعجّ المكان بالحركة, وأحب المكان الشخصية وألفها كما هي ألفته وفاضت له بفكرها وما يجول في خواطرها, يقول السارد:

" **بعد أيام قليلة من التقائي بصالح, أصبح زيتون ملازماً له, يزوره دون موعد ( كان يعتبره عادة برجوازية) في البيت, وفي مكان الشغل, وفي الصباح الباكر, وعندما ينجح صالح في الهروب منه, يبحث عنه في المطاعم والمكتبات, والمقاهي, فيعثر عليه دائماً** " [1] وهنا نجد فكرة المكان تعاظمت وأصبح ت من أهم المحاور التي تؤثّر, وتبرز فكر الكاتب ؛ لإنَّ إدراك المكان للإنسان أو إدراك الإنسان للمكان هو أدراك حسي, ومعنوي, فقد عبّر المكان عن طبيعة ساكنيه, فالبيت يعتبر حالة معبرة عن الطبقة البرجوازية لساكنيه, ويكشف المكان عن طبيعة العلاقات فيه, فصالح محفوظ كان دائم الهروب من وجه صديقه زيتون, وهو بدوره كان يتتبعه في كلِّ وقت وكان يجده على الأغلب في المطاعم التي تكشف أيضاً عن الوضع الاجتماعي للشخصية.

أمّا المكتبات فتدل على شخصية صالح محفوظ المثقفة التي دائماً ما كانت تحب الدّراسة والمطالعة والقراءة, وهذا يدل على مستواها الفكري والثقافي . إنَّ المكان أيضاً يبيِّن درجات الانتقال منه, فالإنسان يعيش في بيت ثم يتنقل إلى مكان عمله يقضي فيه وقتاً لا بأس فيه, وفي بعض الأوقات ينتقل إلى أماكن الترف يه مثل: المطاعم, أو المكتبات, أو البَحْر..الخ ," فإن المكان يمثل الضيق والكرب " [2], وقد مثل لصالح محفوظ الجفوة والانعزال كل مكان يعبِّر حقاً عن حالة الإنسان الشعورية كالفرح, والحزن, أو الضيق, والكرب, فكل تلك الحالات يكشف عنها المكان ؛ فصالح محفوظ يشعر داخل بيته بالوحدة, والضيق, وهو بحاجة إلى حالة انفكاك لتلك الحالة الرازحة والجاثمة فوق صدره, ويحاول الهروب من ذلك البيت, ويذهب إلى أكثر من مكان لعلَّه

---

1 – رواية صورة بدوي ميت, ص9-10.

2 – أحمد عبد الخالق, الشخصية الروائية بين باكثير ونجيب الكيلاني, دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع, دسوق– مصر, الطبعة الأولى, د.ت, ص435.

يجد في ذلك سبيلاً للتخلص من وطأةِ ذلك الشّعور بالضيق, والكرب, كونه يعيش في وطن غير وطنه , وفي عالم مغاير لما اعتاد عليه, فشخصية صالح تحاول الخروج من حدود وطأة المكان, حتى لو كان هذا المكان أليفاً متمثلاً بالبيتِ, فكأنَّه بذلك يبحث عن نفسه الضائعة, ويلملم شتات فكره, فانتقاله من البيت إلى العملِ إلى المطاعم وإلى المكتبة يعبِّر عن حالة الضياع التي يعيشها صالح, فهو يحاول التخلص حتى من الأصدقاء, ويفضل الخلوة بنفسه مع نفسه.

يقول السارد:

" **كانوا أربعة. شابان وفتاتان. كانوا كلهم من قرى الجنوب الصغيرة, جمعتهم في باريس الدّراسة والغربة, كنت أحبهم بالرغم من كرهي الشديد للسياسة التي كانوا مهووسين بها...في البداية عاملوني بنفور وحذر, بل وقسوة** "[1]. إنَّ هذا المكان يعد تعبيراً عن تجربة معيشة للشخصيّة, فهذه الأماكن تعد من أكثر الأماكن تأثيراً بحياة الإنسان, ويبقى أثره محفوراً في ذاكرة الشخصيّة, ولا يمكنها أنْ تنسى تلك الأيام ولحظات المعاناة في ذلك المكان , فالمكان هُنا غير محسوس يدلّ على الغربة والاغتراب التي كانت تعيشها الشخصيّة, ويعبر المكان أيضاً عن حالة ساكنيه الشّعورية وهو في الغربة, فقد أجبرتهم الظروف سواء كانت الدّراسة أم البحث عن تغيير الواقع المتردي المعيش في الوطن من خلال جمع المال , وهو الهدف الثاني من أهداف الغربة, فالمكان هُنَا قد يعبر عن حالة الروائي الذي عاش في الغربة ومازال يعيش حتى هذه اللحظة, وهذا يدل على تأثير المكان الذي يبقى مغروساً في ذات الإنسان وبالتالي يساهم في تشكيل نظرته للمكان الفني الخيالي.

تتشكَّل علاقة حميمة بين سكان هذا المكان في ( الغربة ), وأصبحت العلاقات أكثر ألفة, وقد يعود هذا إلى أنَّ تلك الشخصيّات تكون قد أُجبِرت علي التأقلم مع بعضها الآخر, فكما يقول صالح في البداية كانوا يعاملونه بقسوة ونفور, وخوف وحذر, لكن مع مرور الوقت ألَّف المكان فيما بينهم . فيتَّضِحُ أثر المكان في الشخصيّات الساكنة فيه ؛ جَمَع شتاتهم, وشكَّل بينهم علاقات حميمة, وهذا يدل على شدة تأثير

---

1 – رواية صورة بدوي ميت, ص111– 112.

المكان في ساكنيه, وبهذا فقد " تم تحويل ( المكان ) من حالته البدائية / الوحشية إلى الإطار الحضاري, والثقافي أي إخضاعه للفعل الإنساني ليصبح فضاءً إنسانياً [1], فالروائيّ حَولَ المكان من وحشيّ, وغريب إلى مكان أليف وحضاري تتحرك فيه الشخصيّات وتعبر عن حالتها الشعورية, وتعقد علاقة بينها وبين المكان , وهذا كله يحصل من خلال امتزاج الفعل الإنسانيّ بحركته داخل هذا المكان.

أصبحَ المكان فضاءً إنسانياً تستطيع الشخصية التأقلم معه, فالمكان هُنا قد شكّل العلاقات الإنسانية وألّف بينها. يقول السارد:

" **نظرت إلى المرآة, فاكتشفت أنَّها ترتدي فستاناً قصيراً, وشفافاً قُلْتُ في نفسي: ها هو قاع المدينة الذي يتحدثون عنه.. هاهي دعارة المُدن العربيَّة التي تبدو مستكينة في النهار ...الخ** " [2] إنَّ الأماكن القروية والبسيطة دائماً تثير الفرح في نفس الشخصيّة, أمّا الأماكن العامة والكبيرة مثل المدن, والأماكن الفخمة فغالباً ما تثير في النفس الشّعور بالخوف, والاختناق, والقلق, فالمرأة بشخصيتها المستفزة وفي لباسها القصير تُعدُّ تعبيراً عن حالة المدينة.

إنَّ وَعْيَ الشخصيّة ونظرتها لهذا المكان تبدو نظرة عدائية, فأثر المكان في الشخصيّة بأنْ است ثارها وأجَّجَ داخلها الشّعور بالقلق والخوف والعدائية للمكان, والشخصية تنقد المكان بتأثيره السلبي على ساكنيه, فظهرت المدينة مكاناً مغلقاً بالنسبة للشخصية , وشكل عندها مفهوم ( أنَّ المدن غالباً ما ترتبط بالفساد, والدعارة ) التي تُسْتكين نهاراً , وتحرّكها الشخصيات بحركتها ليلاً, وتظهر تجليات المكان على نفسية الشخصية بأنْ شكّلت وعْي ها وفكرها, وهذا خير دليل عن شعور الإنسان بالغربة, والقلق, والجفاء لهذا المكان, لما كان له من تأثير سلبيٍ على الشخصيات التي نظرت لهذا الإطار المكاني المفتوح جغرافياً المغلق فكرياً , بمعنى أنَّ ثمَّة تطوُّراً لمفهوم المكان؛ إذْ يصبح المفتوح مُغْلقاً:

---

1 – خالد حسين, شعرية المكان في الرواية, ص109.

2 – رواية صورة بدوي ميت, ص142.

" قد تثير رؤية المكان المتغيرة معالمه, ذكريات الماضي في نفوس الشخصيات" [1] كما لاحظنا أنَّ هذه الأماكن المتغيرة ( المدن ) قد أثَّرت في رؤية الشخصيّة لجميع المدن؛ فالشخصية أطلقت نظرة عامة أو ما يسمى ( بالأغلوطة) بأنْ وصفت جميع المدن العربيَّة بأنَّها فاسدة, ومتخفية بقناع في النهار , ويكشف هذا القناع في الليل من خلال الفساد وانتشار الرذيلة, فكان امتزاج الزمن ( الليل ) مع المكان وهو ( المدينة ) امتزاجاً يخدم النظرة للكاتب وللشخصيّة, ويتناسب هذا الزمان طردياً مع حركة الشخصيّات, ووعيها ونظرتها الضيقة للمكان, فقد غ يَّرت الشخصيّة دور المدن في التطوُّير والبناء والزج بتلك الشخصيات- إلى عالم مغاير لما كان متوقعاً.
يقول السارد:

" عندما أتذكر في تلك الظهيرة أكره أبي, ولكي أكون صادقاً أقول: أحقدُ عليه , أعترف , وأنا أشعر بالخجل , أنّني فرحت كثيراً عندما مات, أبداً لم أحبه ؛ لأنّني كنت متأكداً من أنّه يكره أمي التي كانت عاجزة عن قتل ذبابة, حين بدأت أحب العالم كانت أمي قد كبرت, أنهكها المرض وتدير شؤون بيت كبير يعجّ بأطفال عميّ" [2] لأنَّ (البيت) مكان خاص بالنسبة لصالح محفوظ فقد لوَّن حياته كلها وشكَّلها فأثر هذا المكان على نمط تفكيره, وتوجيه سلوكه, وكشف المكان عن منظومة القيم الاجتماعية.

فظهرت نظرة الكُره التي يحملها صالح على والده, وكشف المكان عن طبيعة العلاقات الأسرية داخل البيت العربي في الرواية والذي كان بيتُ صالح يعبر عنها , فأثَّر المكان في طبيعة السلوك اليوميّ للشخصيّات, وساهم في التفكك الأسري في المجتمعات العربيَّة.

إنَّ الأم التي تمثل حميمية المكان وألفته شكّلت عاطفة المحبة لهذا المكان, وما زال أثر هذا المكان غائراً ومحفوراً في أعماق الشخصية, فكشف المكان عن دور الأم في الأسرة الممتدة التي كانت تعاني فيه الأم كثيراً من المعاناة, والتعب وترزح فيه تحت وطأة الوالد والزوج المتسلِّط الذي كان يكرهها, فأثَّر المكان في تلك المجتمعات على كل حياة الشخصيّات وشكَّلها على أهوائه.

---

1 - محمد القواسمة, البنية الروائية, ص98.

2 - رواية صورة بدوي ميت, ص53.

فقد جَعَلَ السَّالميّ " المرأة كنسيج للعلاقات الاجتماعية " [(1)] فالمرأة نموذجٌ لذلك النسيج الاجتماعي الذي ظهر في الرواية على أنَّه مفكك, ومترهّل, ومختلف عمّا كانت عليه العلاقات في المجتمعات العربيَّة في عقود مضت, لكن البشر أحيوا أماكنهم القديمة وألفوها, على الرغم من التغيرات الداخلية, وحتى الخارجية في تلك الأماكن, وارتبط المكان بحالة الشخصية الشعورية, وتعاطف معها على الرغم من قسوتها, " فإنَّ المكان رحيم بالشخصية, لا يحقد عليها ولا يقسو, ولكنَّ الناس لا يحسنون التعامل مع بعضهم البعض " [(2)] البيت هو رحيم بالشخصيّة ويحبها, ولكن من يسكنون تلك البيوت البسيطة والأليفة لا يعرفون قانون التعامل البشري مع بعضهم البعض, ويفسدون علاقاتهم, ويعلقون أخطاءَهم بالمكان الذي يعتقدون أنَّه لم يوفَّقْ في جمع شتاتهم.

أمّا في " **نساء البساتين**" فتشكَّلت بين الإنسان والطبيعة ( المكان ) علاقة تنافر, ففي المكان, يضعنا السارد بين الماضي والحاضر, وبين الموروث, والقيم الجديدة التي أثَّرت في الشخصية وتجلّيات ذلك تظهر في معاني القرب, والبعد, والألفة والعدائية والنفور, فبطل الرواية قد اصطدم بالواقع التونسي بعد غيابه عنه وقتاً طويلاً في فرنسا اصطدم بالبيت التونسي, والعلاقات في ذلك المجتمع برمتها , اصطدم بالشارع العربي, وبتغيير أنماط الحياة وتغيير نظرة الناس للدّين.

يقول السارد:

" **الآن في تونس...تجد كل شيء مع الحجاب...هي على ما يبدو تحافظ, رغم التغيير الذي طرأ على مظهرها الخارجي على ما اعتبره ميزة لديها ...الخ** " [(3)]

تتجلى تأثيرات المكان في الشخصية التونسية في مظهر الشخصية الخارجي, والمكان غيَّر من طبيعة لباس المرأة, وكون تونس مكاناً عربياً إسلاميّاً لا بدّ من أنْ يكون له تأثير على شكل اللباس ونوعه , ولا بدّ أنْ ينسجم مع طبيعة الديانة لأهل تلك البلاد,

---

1 – عبد الكبير الخطيبي, في الكتابة والتجربة, ترجمة محمد بَرادَه, دار العودة, بيروت, الطبعة الأولى, 1–3, 1980م, ص62.

2 – محمد القواسمة, البنية الروائية, ص97.

3 – رواية نساء البساتين, ص11.

أفلح المكان بالتأثير على شكل الشخصية ولباسها, ولكنه كان خارجياً فقط في ( اللباس ), ولم يكنْ هذا التأثير جوهرياً وداخلياً, متناسقاً مع الخارجي.

وقد اعتبر البطل أنَّ هذا التغيير الخارجي دون الداخلي هو ميزة لدى شخصية (يُسْرى), فهي بشكلها ولباسها تحافظ على التغيير الحاصل , لكن جوهرها يخالف هذا المظهر الخارجي, وهذا هو التناقض في الشخصيّة العربيَّة وفي شخصية المرأة بالتحديد, فالمكان جعل الشخصية تتأثر تأثيراً خارجياً فقط, "فحياة الإنسان مرهونة بما يقدمه لها المكان, ويتجلى هذا الارتباط حينما يتعلق بالنفس, والشوق, والمعاناة " (1) المكان يرتبط بنفس الشخصية, وشعورها مع الناس, وشوقها لغيرها وشدة معاناتها , فَهُوَ انعكاس لكلِّ ما تمرُّ به الشخصية من حالات وتقلبات.

وقد يكون تأثير المكان في الشخصية تأثيراً إيجابياً بأنْ يُشْعِر الشخصيةَ بالسعادة والراحة يقول السارد: " أُحب الجلوس في المطبخ, أحس بمتعة وأنا أراقب يسرى تنتقل بين طناجرها, وقدورها, ومقاليها التي تتصاعد منها الأبخرة.. في كلّ زيارة أحرص على أنْ أقضي جزءاً من الصباح كل يومٍ في المطبخ, يسرى سعيدة كالعادة بوجودي معه م " (2) لقد بد ا المكان هنا أليفاً للشخصيّة فعلى الرغم من بساطته فهو يجعل الشخصيّة أكثر راحة وسروراً وغبطة ويخلِّصها من تراكمات باقي الأمكنة.

وعندما أثّر المكان في نفسيةِ الشخصية, فهي بدورها أثّرت فيما حولها فبمجرد وجود البطل مع يسرى تكون سعيدة هي أيضاً, وبذلك يكون المكان أثَّر أيضاً في طبيعة العلاقات ونظرتها إلى بعضها وعلى الجو الأسري برمته.

إنَّ كثيراً من الأمكنة لا تذكر إلّا عندما يكون تأثيرها يرتبط بمعاناةٍ الإنسان, وحتى الأماكن التي ترتبط بحياة الإنسان السعيدة أيضاً يتم التركيز عليها, لتباين شدة المكان على الشخصيّة ونفسيّتها وعلى حياتها, وتفكيرها. يقول السارد:

" يدخل إلى الغرفة للاستحمام والوضوء, وعندما يعود يجلس قبالتي ويسألني:

أتيتني بالسجائر التي طلبتها في آخر جوابٍ بعثته لك؟

---

1 – أحمد عبدالخالق, الشخصية الروائية, ص436.

2 – رواية نساء البساتين, ص15.

نسيت أنْ أطلب إليك في الجواب أنْ تشتري من السوق الحرَّة زجاجة ويسكي ...ما فاجأني هو أنْ يقول هذا في وقت يستعد فيه للذهاب للجامع..الخ "[1].

إنَّ من الطبيعي أنْ يتماهى الإنسان بالمكان ويمتزج معه, فكان من المفترض أنْ يوفَّق الجامع (المسجد) في تأثيره على شخصية إبراهيم, وَيدْفعُهُ إلى الإقلاع عن شرب الخمرة, ولكن كان هناك نفورٌ بَيْنهُما وكان تأثير المكان خارجياً كما هو الحال مع يُسْرى في لباسها, وهذا يَعْني أنَّ الصلاة والتعلق بالمسجد لا يعدو أنْ يكون عادةً ورمزاً هشاً, لم يؤثِّرْ في أعماق الشخصيَّة, ولعلَّ ذلك يمكن أنْ يُفَسَّر بأنَّ المجتمع لم يَرَ غضاضة في الجمع بَيْنَ المتناقضات, فالصَّوْم والصلاة لا يمنعان من ارتكاب كبيرتي الزنا وشرب الخمر بالنسبة لإبراهيم شقيق السَّارد, ومن هُنَا يمكن القول إنَّ المسجد لم يمارسْ تلك السُّلطة القويَّة المؤثِّرة , كما تمارسها العادات المستقرة في المجتمع التونسي وهذا ما أراد أن يقوله السالمي, وهذه فكرة خاطئة؛ لأن التأثير الأكبر في الواقع هو للمسجد, فلا يجوز ربط تناقض الشخصية بالدين أو المسجد.

وفي السّياق الروائيّ كان المتديِّن يُتَهَمُ بالإرهابِ, ولعلَّ إبراهيم أراد في سلوكه هذا, لا شعوريّاً, أنْ يدرأَ عن نفسه هذه التهمة, ويبدو الأخ متفاجئا؛ لأنَّه يَعي, وإنْ لم يكنْ ملتزما دينيّا, بأنَّ الدين يناقض مطالب أخيه. إنَّ كلّ هذه المعاني جاءت من المكان "الجامع", وفي ذلك يظهر النفور بين الشخصيّة والمكان, وهذا النفور هو نفور نفسيّ وأخلاقيّ, ولم ينجحْ المكان في التأثير على جوهر الشخصيّة وأنْ يغير من فكرها ونفسيّتها هُنا, وهذا ما يسمى بالإسقاط وهو : " عملية تقوم بها إحدى شخصيات الرواية أو القصة لإسناد أفكارها أو رغباتها غير المقبولة إلى أشخاص آخرين" [2] فشخصية ( إبراهيم) فيها إسقاط على الشخصيّة العربيّة المتناقضة التي تَحمل فكراً معيناً وجوهراً مخالفاً لما تحاول أنْ تظهره للآخرين ولكنَّها ما تفتأ تنكشف لشدة سذاجتها وبساطتها, فأفكار إبراهيم غير مقبولة بالنسبة للآخرين , فكيف يقبل سلوك شخص يصلي, ويتعاطى الخَمْرَ في الوقت نفسه ؟

1 – رواية نساء البساتين, ص16.

2 – حامد قنيبي, نقد أدبي حديث, ص83.

يقول السارد: " ليس الجامع كبيراً كما يقول أخي, وهو بسيط في هندسته, لكنّه بديع وأروع ما فيه المئذنة النحيلة التي ترتفع مخترقة الفضاء مثل سهم, لم أدخله بعد لكن في بعض الأحيان أقترب كثيراً من المدخل النظيف المبلط بالرخام الأبيض ...الخ " [1] يبدو هذا المكان الأليف ( المسجد ) بالنسبة للشخصية مكاناً ذا نفوذ ؛ فهو لم يدخله ولم يفكر في دخوله فقد وجد بينهما نفوراً وخوفاً على الرغم من أنّ المسجد مكان راحة وعبادة, وهدوء, ومكان روحاني لكن الشخصيّة باتت تهتم بشكله الخارجي فقط, ولكن قد يكون هنالك رؤى قد قدمت من خلال هذا الوصف للمكان, ففي الوقت الحالي قد اهتم الناس بشكل المساجد الخارجيّة والداخليّة ( هندسياً ) وعمروها بزخرفتها, لكنّهم لم يعمروها بالعبادة, وحتى لو أنَّهم عمروها بالعبادة ألّا أنّهم يَبدون متأثرين بها خارجياً ولكنهم لم يتأثروا بها دينياً وأخلاقياً وفكرياً , فنظرتهم له هو مكان لممارسة العادات الدينيّة والطقوس, ولكن لم يدركوا أنَّ الصلاة هي عبادة ليست عادة, بذلك نجد أنْ العلاقة بين المكان والشخصية علاقة جذب, ونفور, وقرب وبعد.

ونجد أيضاً أنَّ المكان قد أثر في نظرة الناس للمغترب, وأثَّر أيضاً في كلامهم كما يقول السارد: " تتحدثان بدون أي حرج عن المهاجرين الّذين يتصرفون كالأغنياء عندما يزورون تونس في الصيف, ويرتدون ملابس فاخرة, ويركبون سيارات جديدة فارهة في حين أنهم يعيشون كالكلاب في أوروبا...لا انزعج من ذلك فقد تعودت على سماع مثل هذا الكلام الذي يجد التّوانسة متعةً خاصة في ترديده " [2] .

لقد تعدى تأثير المكان في لباس الشخصيّة ونمط حياتها إلى تأثيرِهِ في نظرتها للآخرين؛ فقد أثَّر المكان التونسيّ في تفكير النّاس ونظرتهم للمغتربِ فهي نظرة مادية فقط من حيث: طبيعة اللباس, والسيارات والأكل, حتى نظرتهم للمغترب في بلاد الغربة فهم ينظرون أنَّه يعيش هناك في حياة أقرب ما تكون أشبه بحياة الكلاب , ويشي هذا القول بتناقض حادّ بَيْنَ حقيقة المغترب وما يعيشه فِعْليّاً في أوروبا , بطل الرواية هنا كان يعمل مدرساً للتاريخ في أوروبا وقد جعل المكان الشخصيّة تطلقُ أحكاماً وتعمم على المهاجر, والمغترب, وأثّر المكان أيضاً في كلام الشخصيّات فعندما قال البطل:

---

1 – رواية نساء البساتين, ص20.

2 – رواية نساء البساتين, ص29.

هذا الكلام يجد التّوانسة فيه متع ة, فتونس هذا المكان العربي الذي كان سبباً بدفع الكثير من الشباب إلى الهجرة ها هو يظللهم من جديد عندما يغير نظرة الناس للمغترب وقلة احترامهم له على الرغم من أنّها هي من زجت به إلى الخارجِ.

إنَّ " التأثير الذي يحدثه المكان على الشخصيّة, هو ما تقوله الشخصية , إنّما يصدر عن أفكار ونزوعات, ومواقف نفسية, وفكرية مخزن ة في عقل وقلب وذهن الشخصية, تقولها تجاه المكان, الأمر الذي يعني أنَّ العلاقة بين المكان والشخصيّة تبادلية " [1] فقد أثّر المكان في أقوال الشخصيّات , وهذا التأثير ناتج عن مواقف كثيرة كان قد تعرضتْ لها الشخصيّة في هذا المكان وموجود في ذاكرتها إزاء هذا المكان ؛ فالشخصية نظرتْ إلى المكان من خلال تأثيرات المكان الماضية عليه, وهذا يدلّ على أنَّ العلاقة بين المكان والشخصيّة علاقة تأثّر وتأثير.

ومع ذلك فإنَّ البشر أَلِفوا أماكنهم وأحبوها, وتعلَّقت نفوسهم فيها, والمكان قد جعلهم يكسبون ذاتهم الإنسانية من كل شيء محيط بأمكنتهم التي كان لها جلّ التأثير في صقل شخصياتهم, ودمجهم في معترك الحياة المختلفة.

يقول السّارد: ( باب البحر) تنعطف إلى اليسار وننطلق في منطقة لا يرتادها السياح, الأزقة مزدحمة والسلع مكدسة أمام الدكاكين ... في كل مكان تتعالى أغان قديمة, وحديثة...الخ " [2] هذا المشهد المكانيّ يُفصح فيه عن التغيير التام في حياة البشر فالمكان هو ( عطفة) في حياة الشخصيّات, فقد أدتْ تلك العطفة إلى تغيير في حياة البشر, وفي تغيير نظرتهم للحياة حتى غيَّ ر المكان نظرتهم للمكان نفسه, ففي تلك العطفة ابتعاد عن البشر الذين لم يندمجوا معهم , ولم يستطيعوا التعامل معهم, بل فضَّلوا العزلة عليهم, والمكان يصف طبيعة حياة البشر في الأسواق من ازدح ام وسلع مكدسة, وتعالي أصوات الأغاني القديمة وحتى الحديثة وهذا يدلّ على أنَّ البشر يحاولون التّمسك بتلابيب الماضي مع التقدم والحداثة, على الرغم من أنَّ الماضي متغلغل داخلهم.

---

1 – آمنة الربيع, البنية السردية للقصة القصيرة في سلطنة عمان, المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر, بيروت, ط 1, 2005, ص143–144.

2 – رواية نساء البساتين, ص105.

إنَّ إدراك " الإنسان للمكان مباشر و هشٌّ , وصراعهُ معه ما هو إلا تأكيد لذاته, وتأصيل لهويته فبقد ر إحساسه الإنسان بالمكان تكمن أهمية وجوده " [1] إنَّ الإنسان دائمُ الصراعِ مع المكان وذلك من خلال قاطنيه في حالة وجود جو من التّنافر والفرقة فيما بين البشر, ولأنَّ الإنسان دائماً يسعى إلى تحقيق ذاته في مكانٍ ما فقد تواجهه امتدادات مع البشر الذين يملأون تلك الأماكن, فقد يكون الإنسان مثلاً في مركز عمله يحاول أنْ يثبت سُلْطَ ة ذاتِهِ داخل هذا المكان لكنّه قد يشعر في حالة من الاغترابِ وعدم الاندماج فيها, فتكون بالتالي العلاقة هي علاقة تنافر, أمّا إذا استطاع حقاً إثبات ذاته في تلك الأماكن فتكون العلاقة علاقةَ محبة, وألفة, ووفاق.

أمّا عن المكان في رواية (( **جبل العَنْز** )), فإنَّ للمكان تجلياته القابعة في النفس , الإنسانيّة فقد كانت العلاقة بين المكان, والشخصيات, علاقة تأثيرية وتأثُّرية كان لكل منها تأثيره على الآخر, وكان هناك تنافر شديد في بعض الأمكنة وبين ساكينها.

يقول السارد: " **أثارني بيته منذ أنْ دخلته بنظافته , وفي قرية لها موعد كل يوم مع عاصفة من الغبار ما أدْهشني هو ذلك الرّف الخشبيّ الطويل الذي تراصت فوقه الكتب... الخ** " [2] وفي هذا المقام نرى تأثير المكان في الشخصية فقد أثار المكان إعجاب الشخصية, واندهاشها, وأثار في نفسه الغرابة من شدة ترتيب هذا المكان على الرغم أنَّه في قرية كل يوم على موعد مع عاصفة يثار فيها الغبا ر, حتى إنَّ المكان جعل الأحداث تتحرك, والشخصيّات تفكر, فلولا وجود المكان لما تحرَّكت الأحداث في هذا المقام : " فإنَّ مع المكان يقع الإنسان في استشعار العواطف الذاتية, والإنسان في تعامله مع السطح المكاني يستشعر معاني اللذة والألم, والخوف والأمن " [3] بدأت العلاقة في هذه الرواية بين الإنسان والمكان من لحظة دخول البطل في هذه القرية, وهذا البيت بالتحديد داخل القرية, فقد جَعَلَ المكانُ البطلَ يستشعرُ جمال المكان,

---

1 – صبحية زعرب, غسان كنفاني, دار مجدلاوي للتوزيع والنشر, عمان_الأردن, ط 1 , 2006 ص95.

2 – رواية جبل العَنْز, ص14.

3 – عبد الحميد المحادين, جدلية المكان والزمان والإنسان, ص24.

وجعله أيضاً يستشعر الخوف وعدم الأمان داخل البيت؛ لأنَّ إسماعيل الذي كان يسكن معه كانت تصرفاته مريبة فقد يكون لهذا المكان جلّ الأثر في شخصية إسماعيل؛ لأنَّه كان يفضل العزلة في هذا المكان ؛ ممّا جعل بينه وبين البشر الذي ن يتعامل معهم علاقة تنافرية, وبذلك يكون تأثير المكان مُنعكساً على الإنسانِ في كل شيء في حياته حتى في مشاعره, وتفكيره .

فالانتقال من مكان إلى آخر له أثرٌ في تغيير الشخصيّة, سواء كان ذلك التغيير على نمط التفكير أو على إحساسه وشعوره كما يؤثر ذلك الانتقال في طبيعةُ العلاقاتِ بين الأماكن المرتادة وعلى اندماجه وتقبله ماهيتها.

يقول السارد: "**أمضيت الأيام الأولى وحيداً منطوياً على نفسي, عندما ينزل الليل أشعل المصباح وأكتب رسائل طويلة إلى أهلي أنَّ الأطفال أذكياء هُنا والعزلة قاتلة**"[1] وفي هذا المشهد المكاني الذي اندمج فيه الزمان بالمكان وهذا الزمن هو زمن المعاناة التي كانت ترزح تحتها الشخصية, في هذا المكان حيث إنِّ العلاقة اتضحت بأنَّها علاقة حياد حول هذا المكان, فالشخصية لم تحكمْ على المكان لأنَّها جديدة فيه, فقد انتقل البطل من مكان مفتوح, وعالم متفتح, إلى مكان مغلق وهو القرية , ولكن عندما نلاحظ في أحداث الرواية بأنَّ هذه العلاقة بَيْنَ البَشَر والمكان هي علاقة حياد بحكم أنَّ هذا الانتقال جديد, ولكن فيما بعد أصبحتْ هذه العلاقة علاقة أُلفة واندماج.

**يقول السارد:**

" وبسرعة تعمقت علاقتي بإسماعيل, عرّفني بالقرية بيتاً بيتاً, ورغم ذلك كنت حذراً منه " [2] بدأت العلاقة بين الشخصيّات, والمكان تتجه نحو الألفة والاندماج فقد تعمقت علاقة إسماعيل ببطل الرواية, وهذا التعمّق يكون دليلاً على الاندماج والشعور بالألفة تجاه المكان الجديد وساكنيه فإنَّ" هندسة المكان تساهم في تقريب العلاقة بَيْنَ الأبطال أو خلق التباعد بينها " [3] فطبيعة المكان إمَّا أنْ تقرِّب العلاقات بين قاطنيها

---

1 – رواية جبل العَنْز, ص15.

2 – رواية جبل العَنْز, ص15.

3 – حميد لحمداني, بنية النص السَّردي في منظور النقد الأدبي, المركز الثقافي العربي, بيروت– الدَّار البيضاء, الطبعة الثانية, 1993م, ص72.

أو تنافر وتباعد بينها , لكنَّ الهندسة هُنا استطاعت خلق علاقة تبادلية واندماجية بين إسماعيل والأستاذ, وبين الأستاذ بطل الرواية, وَسَائِرِ أهل القرية.

فالأماكن مرآة لساكنيها تعكس طبيعة علاقاتهم, وتفكيرهم, وأنماط حياتهم , يقول السارد: " **أهل جبل العَنْز يجيدون زراعة البطاطا يحفرون بأصابعهم في الأرض المحروثة لا أدري الآن لماذا بدا لي ذلك غريباً.. الخ** " [1] إنَّ المكان قد فسَّر لنا طبيعة عمل سكانه فلكلّ مكان نمط للحياة فيه, ففي هذا المكان جلّ أهل القرية يعملون بالزراعة, وزراعة البطاطا تحديداً , وهذا يدلّ على شدة اندماج سكان (جبل العَنْز ) في مكانهم وقريتهم فلم تسمحْ لهم طبيعة المكان النائي والجبليّ في عمل أكثر من الزراعة فهي الحرفة التي تناسب أهل القرية, فلم يكن هذا المكان مجرد موقع للأحداث, وإنَّما كان يستحوذ على جميع الأبعاد الإنسانية, والفكرية والمعيشية , ويعكس الاقتباس السابق من الرواية تَمُّسك الناس بالمكان وانتماءَهم إليه إذْ يحفرون الأرض بأصابعهم, ويبدو أنَّ المكان هو الذي شكَّل هذا الانتماء, كما أنَّ الناس بحكم الحاجة والعادة طوّعوا المكان؛ ليستجيب لمطالبهم.

إنَّالشخصيات تمارس سلطتها, وعملها, حتى سطوتها على المكان, فإنَّ "حصول معرفة الإنسان تتجه لتفاعله مع محيطه ؛ إذْ كُلما زادت احتكاكاته زادت معرفته وكلما كان المحيط نشطاً نمت معرفته بمقدار ذلك النشاط " [2] فكلّما اقتربت الشخصية من محيطها المكانيّ ازداد الاندماج بين الشخصيات فيما بينها وزادت معرفته بطبيعة الأماكن التي اقترب منها, وشكّل معها علاقة وطيدة, وعندما تزداد قسوة المكان, وبطشه على الشخصيّات يحدث هناك حالة الاغتراب مع ذلك المحيط الذي قذف به خارج محيطه, وهُنا يتسبب للشخصيّة الفشل, والإحباط, والنفور من الأشخاص القاطنين في هذا المكان.

**يقول السارد:** " لم يكنْ إسماعيل يعيش من زراعة البطاطا كسكان جبل العَنْز رغم أنَّ الأرض التي ورثها عن جدّه واسعة, كانَ يفخر أنَّه موظف في الحكومة يتقاضى

---

1 – رواية جبل العَنْز, ص20.

2 – محمد مفتاح, دينامية النص, المركز الثقافي العربي, المغرب, د ط, 1987 , ص41.

منها راتباً مرتفعاً " [1], فالمكان بالنسبة لإسماعيل هو مكان يمارس فيه سلطته أولاً ؛ لأنَّه صاحب أرض واسعة يعمل فيها الكثير من الناس, وثانياً لأنَّه موظف حكومي يتقاضى راتباً عالياً, فهو لم يكنْ مثل باقي سكان القرية يعمل في الزراعة, وهذا ما يدلّ على الفوارق الطبقية بين أفراد المجتمع الواحد, وفي هذا المقام إلحاحٌ شديدٌ من الروائيّ حول اندماج البعض في مكان , وتنافرهم واختلال طبائعم وأنماط حياتهم وَفكرَهم ووضعهم الاجتماعي الطبقي في المكان نفسه على أنَّ الأَمْرَ لا يبدو جماعياً, فالذين خرجوا من المكان فقدوا شيئاً من هذا التعلق به, كما هو الحال عند إسماعيل.

وَبعد مضي وقت على مكوث الأستاذ في قرية جبل العَنْز, بدأت علاقته مع المكان تتغير, يقول: " حياتي كانت قاسية هُنا . أحياناً كنت أغلق الأبواب والنوافذ كي لا أرى أحداً, كنت أحب المطالعة وخاصة الملاحم وكتب التاريخ, لكن هذا الحبّ تحوّل إلى نفور في فترة قصيرة...الخ " [2] فقد أصبحت حياة البطل قاسية وصعبة في هذا المكان ( جبل العَنْز ) رُبَّما لأنَّ الغربة والبعد قد طالا فقد أصبح يفضِّل العزلة , ويغلق الأبواب وفي إغلاقها دليل على عدم محبته لمخالطة البشر الساكنين في ذل ك المكان, لتولد علاقة نفور جديدة خلقها الزمن الطويل الذي مضى على غربته, حتى الكتب التي كان يحب أنْ يقرأها أثر عليه المكان المنعزل إلى النفور منها. إنَّ التّشكيل الفضائيّ للمكان يتنافر مع الشخصيات, ويزج بها إلى الخارج, وهذا التشكيل قد أدى إلى خلق حالة من النفور بين المكان وساكنيه؛ لأنَّه لم يتلاءَم مع طموحاتها, وأفكارها, وأنماط الحياة التي عاشتها.

والمكان يُشكِّل منظومة القيم لدى الإنسان فهو " يتغلغل في أنحاء الجسد, ويستقر في صميم الذّات, ويساهم في خلق جانب من جوانب منظومة القيم لدى الإنسان " [3]؛ فقد تغلغل المكان في صميم الشخصيّات وشكَّل فيها الإنسانيّة والشعورية, وأوصلها إلى حالة من النّفور والبعد وعدم الاندماج الفكريّ والعقلي, وسبب

---

1 – رواية جبل العَنْز, ص22.

2 – رواية جبل العَنْز, ص30.

3 – خالد حسين, شعرية المكان في الرواية, ص107.

ذلك هو انتقال البطل من بيئة منفتحة كونه دَرس في فرنسا ومكث فيها وقتاً طويلاً فقد يكون لهذا الانتقال جلّ الأثر في تشكيل منظومة القيم لديه.

يقول السارد: " **كان الحشد هائلاً تحت شجرة التوت, فكرتُ وأنا أنظرُ إلى الحقول الواسعةِ الساكنة أنَّ يوماً آخر يمضي, وللمرة الأولى خطر ببالي أنَّ حياتي قد تنتهي هنا ورُبَّما أموت في جبل العَنْز ...الخ.**" [1]

يطالعنا تأثير المكان هنا في (جبل العَنْز) على نفسية البطل, وخصوصيتها ؛ فهو يميل إلى الخوف والقلق, والاغتراب, يخاف أنْ يقضي حياته في هذا المكان ويعيش ويموت فيه, وهذا الخوف يُسجِّلُ انطباعاً سلبيّاً لدى الشخصية تجاه المكان رَغْم جمال الطبيعة وهدوئها وسكونها.

يرفض أنْ يعيش وحيداً غريباً, وهذا الشعور يستنزفه, ويحتلُ مساحة كبيرة من تفكيره, فكأنَّ الروائيُّ هُنا يلوح من بعيد حول فكرة الغربة, كونه أمضى حياته في فرنسا فقد يكون أسقط الوضع الذي يمُّر فيه على بطل الرواية , وقد شكَّل ذلك من خلال نفسية الأستاذ التي يبدو عليها الخوف من الموت في مكان بعيد عن موطنه الأصلي الذي ولد وتربَّى فيه يقول السارد:

" **جبل العَنْز تغيَّرت...الآن يمكن أنْ نقول إنَّها صارت مدينة..لستُ أبالغ..إنَّها الحقيقة أنتم صغار ولا تعرفون المدن..أنا أقمتُ أعواماً كثيرة في المدن و أستطيع أنْ أحدثكم عنها..أعر فها جيد اً شوارعها وبيوتها وأشجارها** " [2]. إنّ الأستاذ ما يزال يعيش في حالة يكتنفها الخوف والاغتراب, فانعكس ذلك الشعور الاغترابي في هذا المكان حتى على نمط تدريسه للطلبة, فهو يحدثهم عن المدينة , لأنَّه يعرفها جيداً , ويعرف كُلَّ شيء فيها ؛ لأنَّه قضى فيها أعواماً طويلة, ولعلّ هذا الحديث لطلبة من شأنه أنْ يقارن بين حال المدينة, وسكانها وبين أهل القرية القابعة بعيداً عن كل شيء, فَبَد تْ شخصيّة المعلم قلقة ومنعزلة كانعزال المكان, وهنا جَعَلَ الروائيُّ الشخصيّةَ متناغمة مع المكان الذي تعيش فيه فالمكان غريب ومنعزل, كذلك الشخصية تشعر بالضيق والغربة والانعزال.

---

1 – رواية جبل العَنْز, ص36.

2 – رواية جبل العَنْز, ص44.

إنَّ الإنسان في المدينة قد اعتاد التنوُّعَ في الأمكنة وتغيرها, فعندما يأتي إلى الريف, والقرية, فهُنا يصطدم بالواقعِ الجديد الذي آل إليه, ويشعر بحجم المفارقة بين المكانين وهُنا تتولد لديه حالة من الضياعِ وعدم الاندماج ؛ لأنَّ التغيُّر في القرية يبدو بطيئاً, ولكن السَّارد يمازج بَيْنَ الأمكنةِ من خلال الاستدعاء, مُقدّماً ذلك من خلال راوٍ عليم ومشارك.

لَقَدْ جعل الروائيُّ جُلَّ الأحداث , وتحرَّك الشخصيّات داخل أماكنه ا بصيغة الماضي ؛ ولعلَّ هذا يدل على أنَّ الشخصيّات قد تأثرت بماضيها الذي قد شكَّل حاضرها, وهذا يمثل حالة البطل الذي عاشَ في الماضي في مكان مفتوح هو المدينة , وبعدها انطلق وولج في مكان جديد لم يستطعْ التأقلم معه, ومع ساكنيه على الرغم من مرور حقبة زمنية طويلة على ذلك الانتقال ؛ مما يدل على أنَّ المكان القديم هو صاحب الأثر الأكبر في بناءِ الشخصية, وتشكيلها.

في رواية " **أسرار عبدالله** " تتنوع العلاقات بين الأماكن وبين ساكنيها, فمنها العلاقة الحيادية, والعلاقة التنافرية, ومنها علاقة الأُلفة والاندماج. يقول السارد:

" الأرض هي كل شيء.. والذي لا يملك الأرض لا يملك أي شيء حتى لو كان عنده كل مال قارون " [1] إنَّ المكان في هذه الرواية هو بؤرة النصّ, وهو الحامل للأفكار والمحرِّك للشخصيّات التي ما كان يمكن أنْ تملك وجدودها لولا المكان, حيث إنَّ البطل قد جَعَلَ الأرض كل شيء: هي الهُوية, وهي الدالة على العلاقة الوطيدة بينه وبين الأرض, فالأرض مكان يستحوذ على جميع أشكال الألفة والمحبة والانسجام.

وبالتالي فإنَّ " المكان ليس منعزلاً عن فعل الشخصيّات وبالتالي فالشخصيّة الفاعلة هي التي أقامته وحدَّدت سماته وهي القادرة على تغييره" [2] وهذا ما يدل على إنَّ الشخصيّات حتى و إنْ تنافرت مع المكان لا تستطيع الانعزال عن بعض الأماكن مثل أماكن العمل أو أماكن العيش التي وُلِدَ فيها فهو يبقى دائماً مرتبطاً بها حتى وإنْ تنافرتْ معه؛ فعبدالله كانت علاقته في الدوار مع الناس علاقة تنافرية لنفورهِ من المكان نفسه, لعدم استطاعته ممارسة سلطته السّابقة فيه, يقول السارد: " الماء يسيل من تحت

1 – رواية أسرار عبدالله, ص29.

2 – مهدي عبيد, جماليات المكان, ص191.

قدميك ياسي عبدالله..نعم تحت قدميك وأنتَ غافلٌ, حياتك في خطر " [1]. هكذا يُعبّرُ عبدالله عن الخطر المحدق به مُناجياً نفسَهُ, منبِّهاً إيَّاها من الاستسلام, عَادى المكانُ فعاداه المكانُ بأهله؛ لأنَّ إدراكه كان مُنصبَّاً على الأرض وشرائها ظاناً أنَّه بذلك يستطيع أنْ يشتري الناس وعندما ملكها شعر بالخطر. إنَّ العلاقة تبدو علاقة اقتراب وابتعاد؛ كُلما اقترب من الأرض وظن أنَّه امتلك البَشر ابتَعد عنه البشر كما نَفَر منه المكان.

يشكّل المكان في المقطع السّابق تفكير الشخصيّة فالبيت هو المحرِّك لتلك الهواجس والمخاوف, فما إنْ يدخل غرفته حتى يبدأ بالتفكير في موضوع العصابة الذي بات يقلقه ويقضُّ مضجعه, ويخاطب نفسه قائلاً: إنَّ حياته في خطر, فهو يشعر بالغربة والإحباط واستحالة العيش مع تلك المخاوف التي ستقضي عليه قبل الأوان.
فبعد أنْ كانَ المكانُ كلّ شيء بالنسبة له, أصبح انتقاله إلى هذا المكان جسْراً إلى النفورِ والخوف, والقلق, وعدم الاندماج . فعبدالله أصبح يضيق ذرعاً ببيته بسبب المخاوف التي داهمته, والتي أثَّرت بدورها في طبيعة تعامله مع الناس في محيط تلك الأماكن, وهي: البيت, الدوار, السوق...الخ في ظل تلك الحالة النفسيّة التي وصل إليها.

إنَّ للمكان دوراً كبيراً في تشكيل ممارسات الشخصية, ويحمّلها عاداته و تقاليده حتى لو كانت قديمة, فيمحور الشخصيّة ويخلقها بأخلاقهِ التي كسبها من البشر ذاتهم.

كما أنَّ المكان يُحمِّل الشخصيّة مجموعة القيم المكتسبة, ويحمله قسوته إنْ كان قاسياً ووحشياً, كما أنَّه يحمله الألفة التي عاشها المكان في ظلالهِ الوافدة مع البشر.
وفي رواية " **أسرار عبدالله** " حمَّلَ المكانُ البطلَ الأسرارَ والغموضَ الذي كان يلفّ الدوّار, والسوق, كما حمَّله الخوف الناجم عن الظلم الذي نشره في أكثر من مكان ؛ فأصبحَ المكان معادياً له ومنفراً إياه وقاذفاً به خارج أمنه وسلامه, فكأنّما الأماكن تكره البشر وتنفر منهم؛ بسبب ظلمهم, أو نفورهم من بعضهم البعض , وها هو عبدالله يَسْترجع الذكريات المؤلمة, وكأنَّ المكان يُعيده إلى تلك الأيام : "كنت دائماً في

1 – رواية أسرار عبدالله, ص34.

خطر. ..كانوا يكلفونني دائماً بالقبض على المجرمين الكبار في دواوير بعيدة ومعزولة...ذات مرة شفت الموت بعيني...الخ "[1] لقد قام المكان بالكشف عن الملامح العامة لحياة عبدالله, وماضيه الذي عاشه, وما زال متأثراً به فهو يسرد على زوجته ذكرياته عندما كان يعمل دَرَكياً في منطقة (حفوز) , وكأنَّ عبدالله جعل من تلك الذكريات حافزاً له لمواجهة خطر العصابة التي باتت قريبة منه, والأماكن المنعزلة القديمة والغريبة والبعيدة أدَّت إلى بعده عن البشر وعزلته عنهم كما لو أنَّها بَشر مثلهم تقرّب, وتبعّد وتقدّم, وتؤخّر, وتؤلّف وتفرّق, وزيادة على ذلك جعل من هذه الذّكريات جَرَس إنذار مِمَّا هو آتٍ.

وتأثير الأماكن في الشخصيّات هو (( بالقدر نفسه الذي تؤثّر فيه الشخصية على المكان, في محاولة لإبداعه من جديد عن طريق الانتقال ))[2] فالتأثير موازٍ يسير وفق خط مستقيم مع خط آخر, بمعنى إنَّ عبدالله قد أثر على الأماكن بسلطته, بدورها أثّرت فيه في كلِّ حياته وسمحت له بأنْ يمارس سلطاته فيها.

لقد حمَّل المكان الشخصية منظومة القيم الاجتماعية التي كان يحملها هُنا الحبيب السَّالميّ, كان يختار شخصياته من الواقع, وحتى الأماكن في معظم رواياته التي تناولتها الدّراسة هي أماكن واقعية تونسية, ولعلَّ في هذا إشارة إلى واقعية الأحداث التي ذكرت أو أراد السَّالميّ تغييرها وأعاد صياغتها من جديد للوصول إلى الغاية المنشودة.

فالمكان الواقعي والشخصيّات التي يحمِّلها السَّالميّ الواقع هي " قريبة من الممارسات اليومية, ومحاكاة النماذج البشرية العادية "[3] ففي هذه الرواية( أسرار عبدالله ) وجلُّ روايات السَّالميّ التي تناولتها الدّراسة تم ذكر معظم الأماكن والشخصيّات التي أسقطها السَّالميّ على الواقع العربي والتونسيّ بشكل خاص, حتى يُدرك للقارئ حجم تأثير المكان الريفيّ على الإنسانِ الذي يعيش في حالةٍ من الضياع والاغتراب الداخلي في وطنه, وحتى الاغتراب النفسيّ الذي يحمّله السَّالميّ للكثير من شخصيات رواياته.

---

1 – رواية أسرار عبدالله, ص122.

2 – مهدي عبيد, جماليات المكان, ص92.

3 – سالم المعوش, صورة الغرب في الرواية العربيَّة, ص398.

ومن تلك الأماكن التونسية الواقعية التي تم ذكرها في هذه الرواية , التي وردت كثيراً في باقي الروايات هي : العُلا – سبيطلة – حفوز– القيروان...الخ ومن الممكن تفسير هذا المَنْحَى بأنَّ تلك الأماكن تمتزج فيها البداوة والبدائية مع انطلاق الحضارة الجديدة التي غذَّت تلك الأماكن التي قد يكون إسقاطها ليس على تونس فحسب بل إسقاطٌ على الواقع العربي, الذي عانى فيه أفراده من الحِرْمان, الذي ألقى بظلاله على جفاء ساكني تلك المُدن والقرى, ورُبَّما يعود ذلك إلى الفجوة الثقافية, والفكرية بين الواقع الحالي والواقع المنشود, وعلى الرَّغم من كلِّ شيء, فإنَّ ثمَّة رابطة ما تجعل البشر مُتعلِّقين بأرضهم.

وكما يقول مرشد أحمد: " فإنَّ البَشر أحبوا أماكنهم وألفوها ؛ لأنَّها ذواتهم وكيانهم فظلوا متوحدين فيها رغم التحولات الكبيرة, وارتبطوا بها ومعها بصلة شعورية " [1], فمهما كان المكان قاسياً على البشر فهم يحبونه ؛ لأنه هو ذاتهم, ولأنَّهم عاشوا فيه الحياة بكل ظروفها, وهو بدوره أحبَّهم, واتحد معهم؛ لأنَّه هو هم ذاتهم, فمكان الإنسان يعني الإنسان ذاته.

تزداد علاقة عبدالله في السُّوق فكما يقول : " إنَّه يحب السُّوق, فهو المكان الوحيد الذي يلتقي فيه برجال من الدواوير البعيدة والقريبة ويعلم فيه أهم ما يجد فيها من أحداث " [2], فعبدالله يحب السُّوق ويلتصقُ به, فقد أحبَّه ؛ لأنَّه يلتقي بالكثير من الناس ويخاطبهم وأيضاً لأنَّ في السّوق كلَّ الأخبار التي تهمه وخصوصاً أخبار(عصابة الغرابة ) , وابتعاده عن السُّوق يُفْضي, بالضرورة إلى الشعور بالغربة والعُزْلة التي سيعاني منها فيما بعد.

فيغدو السُّوق كأنَّه أجبر عبدالله وأخضعه إلى قوانينه وأهم القوانين, هو قانون (الحبّ) والانجذاب, فالأماكن تنتج عنه شخصيّات متفاوتة في فكرها, وشعورها, ونظرتها إلى ما حولها, فقد ألزم المكان عبدالله بمحبته والاقتراب منه لذلك أحبَّه واقترب منه ؛ فهو يجد فيه الملاذ الآمن الذي يصبو إليه ." إنَّ العلاقة وثيقة وملتحمة بين المكان الروائيّ, وبَيْنَ شخوص الرواية, ويمكن أن يُحوَّل المكان إلى أداة للتعبير عن

---

1 – مرشد أحمد, أَنْسنةُ المكان في روايات عبد الرحمن منيف, ص41.

2 – رواية أسرار عبدالله, ص128.

موقف الأبطالِ من العالم " [1], فالمكان وإنْ كان بوجهة نظرنا بسيطاً , فإنَّه يكون له موقف يعبر به عن الشخصيات ونظرتها إلى الواقع المألوف, والتآلف الإنساني بين ساكنيه, فالسُّوق مثلاً يُعبِّر عن رؤية الشخصيّة للواقع التونسيّ, ويعكس نظرتها للحياة, وعدم انحيازها لبيئة معينة, على الرغم من أنَّ عبدالله انحاز للسوق؛ لأنَّ فيه إدانة للقيم السلبيَّة في هذا المكان.

فالبيئة المكانية هي حقيقة البشر التي تعكس معاناتهم, وكلّ ما يتصل بهم من قريب وبعيد , سواء بأنماط حياتهم, وأفكارهم, أو أساليبهم التي يمارسونها مع بعضهم البعض, التي أيضاً تُحدد حجم معاناتهم, وتُحدد مصائرهم, فإذا كانَ الإنسان يعيش مثلاً في بيئة دينية فهي تحمّله القيم الإسلامية, والأخلاق الدينية التي تعكسها تلك البيئة.

إنَّ المكان هو الأكثر التصاقاً بحياة البشر ؛ لأنَّ إدراك الإنسان للزّمن يختلف من حيث إدراكه للعنصر المكاني, حيثُ إنَّ المكان أشد ارتباطاً, وتأثيراً بحياة البشر, والمكان يدرك بشكل مباشر إدراكاً حسيّاً والانتماء للمكان هو الفيصل في العلاقة بَيْنَ المكانِ والإنسان, فاختيار المكان وتنسيقه يمثِّل هوية ساكنيه ومدى ارتباطهم به, فلكلّ مكان تأثيره على الشخصيّات ونفسيتها ووعيها للحياة.

وكما هو متعارف عليه فالمكان هو أهم العناصر المكونة للفضاء الروائيّ , فلا زمان ولا شخصيّات, وأحداث خارج النطاق المكاني, فللمكان أبعادٌ تتجاوز كلّ الحدود الضيقة لبقية العناصر, حتى أنَّ وجود المكان في الكثير من الروايات هو الهدف من ورائها, ويأخذ دور البطولة فيها كما أسلفتُ الحديث في موضع سابق.

وكما ورد سابقاً أنَّ رواية ( **عشاق بيَّة** ) قد وقَّعت على مكان واحد كان له جلّ الأثر في بناء الأحداث, وتشكيل بنية الشخصيّات التي امتدت مع المفاصل الزّمانية التي تحرّك داخلها, يقول السارد في الرواية: " شيء ما اخترق جسد العيدي. لم يكنْ يتصور أنَّه سيكون قادراً على روايتها أمام رجال يجّلهم وخصوصاً في مكان سرّيّ ومقدس وغامض مثل زيتونة الكلب, الآن وهو ينظر إليهم يسجدون ويركعون...الخ " [2] إنَّ

1 – عبد الحميد محادين, جدلية المكان والزمان والإنسان, ص30.

2 – رواية عشاق بيَّة, ص37 .

التوجه للواقع, وإعادة خلقه قد جاء تجسيداً لطوع وتوجهات الروائيّ في الرواية, فقد شكلت هذه الرواية تشكيلاً فنياً مبدعاً بالإضافة إلى الكثير من أعماله التي طالعتها الدّراسة, فالمكان فيها كان هو المحرّك للأحداث, والدّاعم والباني للشخصيّات التي جعلها تستند إلى هذا المكان الذي وصفه بالمقدَّس, فجعل لهذا المكان سَطْوَته الأسطورية التي بنت الشخصّيات وشكَّلتها, فهذا المكان البسيط يَحْملُ فكراً على بساطته, ويلوُّن الأشياء بألوانه, جاءَ هذا المكان البسيط يحمل فكراً للشخصيات ويحمل أملاً, وآلاماً, ويحمل خيراً, وشراً, يحمل الماضي وينظر ويرقب إلى المستقبل المشرقِ الذي يسعى السَّالميّ إلى تحقيقه عن طريقِ تلك الشخصيّات, فزيتونة الكلب, مقدسة بالنّسبة لهم, هذا المكان الذي يمثِّل تونس بأكملها بمثابة الهُوية للشخصيّات, فلم يكنْ المكان في هذه الرواية اعتباطياً, وديكورياً بل كانَ عُنصراً مؤثراً, يَحمل في طياته أبعاداً إنسانيّة مثل: الرحمة والمحبة والألفة وغيرها, وأبعاداً اجتماعية مثل: الواقع الاجتماعي, والترابط والبساطة لتلك الشخصيات التي تبدو كالأطفال على الرغم من سلوكهم الواعي, وتقدِّم عالماً يُعري المسنين في خريف أعمارهم, يقول السارد:

"**كانوا للتوّ وصلوا إلى زيتونة الكلب, أجسادهم فقدتْ تماماً دفْء البيوت التي غادروها** " [(1)] هُنا شُكِّلَ الوصفُ المكانيُّ, ووصف الشخصيّات من خلال وصف نفسيتها التي يظهر عليها الاغتراب النفسي والداخلي فالمسنُّون لم يحسّوا بالدفْء والطمأنينة في بيوتهم بقدر ما يشعروا بها في هذا المكان الأليف لهم, الذي يشعرهم بالأمان والرّاحة ويتيح لهم التعبير عن أفكارهم وتطلعاتهم, وحتى يتيح لهم مراجعة شريط ذكرياتهم, فقد بدتْ الشخصيّات ضعيفة, ومضطربة, تعاني العزلة كعزلة هذا المكان؛ ويتّضحُ ذلك من خلال قول الراوي: " أجسادهم فقدت دفْء البيوت " وهذا يدلّ على شعورهم بالاغتراب والقلق النفسيّ في بيوتهم التي كانت من المفترض أنْ تقدِّم لهم الطمأنينة والدفْء اللذين فقدوهما ووفرهما لهم المكان( **زيتونة الكلب** ).

أصبحتْ البيوت بالتالي مكاناً معادياً لهم ولحياتهم, وتحول دفْؤُهم إلى برودٍ عاطفيّ, وجنسيّ وحتى برود ونفور اجتماعي , فأصبحتْ الشخصيّات تبحث عن ذلك الدفْء

---

1 – رواية عشاق بيَّة, ص86 .

خارج تلك البيوت : " فالمكان له تأثيره المباشر في الحَدَ ث, والأسلوب, ولغة الحوار, ويعدُّ المكان أحد معالم الشخصية, إذْ به تتأثّر ومنه تنطلق وإليه تعود "[1] فأصبحتْ " زيتونة الكلب " الهَيْت لتلك الشخصيات التي تأثرت بقدسيّة المكان , فأُنْطِقتْ بلغته, واندمجت مَعَه وَعقدتْ بَيْنَهَا وبينه علاقة حميمة تشاركيّة, فالمكان قد كشف عن الذّات المُتشظّية للشخصيّات, التي تقوقَعتْ على نفسها فيه.

إنَّ " زيتونة الكلب " شامخة شموخ المكان الذي تعيش فيه ألا وهو الريف التونسيّ, فكما يقول الراوي: " زيتونة الكلب شامخة بأغصانها الضخمة..لا شيء تغير فيها منذُ أعوام كما لو أنَّها أصبحت كائناً لا زمانيّاً , لكنّ الحياة الصغيرة مستمرة داخل تجويفها بإيقاعها السرّيّ... " [2] لقد أنسن السَّالميّ المكان , وجعل منه إنساناً تدب فيه الحياة والروح, ويبقى هذا الإنسان شامخاً قوياً شموخ هذا المكان الذي يمثّل واقعاً يُعاني فيه الناس من الفقر, والضياع . فهذا المكان التونسي بقي شامخاً على الرغم من التغُّيرات التي طرأت على غيره من الأماكن, وهذا المكان له إيقاعات تميّزه عن غيره من أماكن, فهو الوطن والهُوية الرّاسخة كرسوخ تلك الشجرة الضاربة جذورها في أعماق المكان والزمان.

فالشخصيات في هذه الرواية وغيرها من روايات السَّالميّ التي طالعتها الدراسة كانت تتميز بألقاب مثل : (المكي, البَرْني, الهجّالة, الصّبايحي, العيدي ), فقد كانتْ تلك الألقاب عبارة عن " أقنعة لهذه الشخصيات, التي قد تكون تمثل شخصيات حقيقة معاصرة " [3] فلعلَّ تلك الشخصيات تعكس الواقع الذي يعيشه كبار السن في الريفِ العربيّ, والكشف عن حياتهم اليومية وأسرارهم التي يخفونها عن الجميع إلّا عن أنفسهم, فإنَّ تلك الصورة هي صورة بائسَة لهذا الواقع البائس الذي يدفع إلى الخوف, وإلى الخروج عن الواقع, والهروب إلى واقع آخر تسعى الشخصيّات إلى الوصول إليه , ويتضحُ أنَّ هذا المكان هو المكان الأمثّل الذي يناسب واقعهم, والأمثل بالنسبة لهم.

---

1 –أحمد عبدالخالق, الشخصية الروائيّة بين علي أحمد باكثير ونجيب الكيلاني, ص143.

2 – رواية عشاق بيَّة, ص113.

3 – جلال الدين السيوطي, مقامة الرياحين, تحقيق سمير دروبي, ص112.

## 3.2 تأثير الشخصيات في المكان

لقد تناول المبحث الأول من الفصل الثاني علاقة المكان بالشخصيّات ومدى تأثيره في الشخصيّات, أمّا هذا المبحث فسوف يتناول العلاقة بَيْنَ الشخصيّات والمكان ومدى تأثير الشخصيات في المكان وخلق أبعاده.

إنَّ المكان والشخصيات يُلهم كل منها الآخر فالمكان يستلهم, ويستمد من الشخصية خصائصه وسماته, والمكان بدوره يشكل الشخصية, ويحوّ رها على وفق أهوائه , لكنّ للشخصيّة دورها في تشكيل المكان, وخلق علاقة تشاركيه وتفاعلية معه فتتجلى أهمية الشخصيّة في الرواية من خلال ربطها بالمكان وتفاعلها داخله, " فالمكانية لا تتشكّل إلّا من خلال الشخصيّات التي تنوء بحمل الأحداث التي تكشف في الوقت ذاته عمق وقع المكان وإيغاله من خلال خلجاتها المتعددة " [1] التي تضفي على المكان دلالات إنسانيّة وتحمله دلالات مجازية أيضاً.

فالشّخصيات هي التي تفرض نفسها على المكان وتضفي عليه طابعاً خاصاً تحمله له, فيغدو المكان حاملاً لفكر الشخصيّات الناطق بلسان حالها والمعبر عن أفكارها وعاداتها. إنَّ الشخصيّة هي المحرِّك للأحداث التي تجري داخل هذه الأمكنة التي بدورها تجعل الزمان يجري في عالم الرواية . إنَّ تلك العناصر تتحد معاً لتُشكِّل المنظور الروائيّ الذي يسعى الروائيُّ إلى خَلْقِهِ, من خلال التركيز على الجوانب المكانية, وعلى الشخصيّات التي تتحرَّك داخله, فقد توظف عناصر كثيرة مثل: البعد الديني متضافراً مع الشخصيات والمكان من أجل الوصول إلى هدف وغاية, كما أنَّه من الممكن توظيف أبعادٍ أخرى مثل: البعد الاجتماعي, والبعد الإنساني, والبعد الثقافي ...الخ, فكما تم آنفاً توضيح العلاقة بين المكان والشخصيّات واتضحت العلاقة أنَّها علاقة تشاركيه, وتأثيرية, لكن كانت سطوة المكان أكبر على الشخصيات من سطوتها عليه, ولكن سوف يتم ذكر تأثير الشخصيّات على المكان بإيجاز. إنَّ الأشياء تبدو في الغالب على الصورة التي نَرَاها نحن, وليس بالضرورة, على حقيقة الأشياء, فالإنسان المَرِح السَّعيد ينظر إلى الصحراء, مثلاً, نظرة إيجابيَّة ويجعلها جنَّة على الأرض وإذا

---

1 – مهدي عبيد, جماليات المكان في ثلاثية حنا مينه, ص35–36.

تحققت الألفة" فيبدو أبأس مكان جميلاً " [1] وعكس ذلك صحيح أيضاً؛ فقد يَبْعَثُ القَصْر, مثلاً, الملل والبؤس في النفس. فالأماكن قد تتشكَّل وفق رؤية الإنسان لها, ويتحقق هذا على المستوى الفني على الأقل.

إنَّ الروائيّ قد يلجأ إلى" إسقاط الحالة الفكرية أو النفسية للأبطال على المحيط الذي يوجدون فيه ." [2] ففي الكثير من الأحيان يلجأ السَّالميّ إلى إسقاط حالة الشخصيّات في رواياته على الواقع التونسي الذي يَعْمل جاهداً على تغيير هذا الواقع الذي ينظر له على أنَّه واقع مرير وواقع مؤلم, ففي هذه الحالة يكون قد فاق دور المكان دوره كعنصر روائيّ فقط بل حمله السَّالميّ بعداً واقعياً, واجتماعياً ويؤطِّرُ السَّالميّ الواقع التونسي ويصفه وصفاً دقيقاً, من خلال الأحداث التي تحرِّكها الشخصيّات في الإطار المكاني , بل يُحمِّلُهُ هموم الناس وطموحاتَهم وأوجاعهم, فنظرة السّارد في "نساء البساتين" مثلاً, إلى المسجد أضفت على المَسْجد سلبيَّة مُنَفِّرة, وأصبحنا نَرى مكان العبادة كما شكَّله الإنسان وليس كما هو على الحقيقة.

وعلى خلاف "نساء البساتين" تزداد قيمة المكان من خلال نظرة البَشر له يقول الراوي في"جبل العَنْز" : " عبرنا وادياً جافاً, على جانبيه نباتات من الدفلى وفي مجراه رمل كثيف كانت تغوص في قوائم البغلين, لم يكنْ هناك أي أثر لأقدام أو حوافر فكأنَّنا أول من عبر ذلك المكان ...الخ " [3] إنَّ المتأمل للمقطع السابق يستشف منه تأثير الإنسان على المكان فما إنْ يطأ الإنسان المكان حتى تدبَّ فيه الحياة ويصبح له قيمة, فالإنسان هو من يجعل للمكان قيمة ووجود اً وأثراً فلولا وجود الإنسان لما تغيَّر المكان وأصبح مألوفاً وأنيساً بَعْدَ أنْ كان مقفراً ووحشيّاً, فإنَّ العلاقة بين الإنسان والمكان تبدأ منذ أنْ يدخل الإنسان إلى هذا المكان فيندمج معه, فتتامى, وتتفاعل العلاقة بينهما, وقد تضعف وتصبح العلاقة بينهما علاقة محايدة حيناً أو معادية حيناً آخر , فقد يكوّن الإنسان مكاناً, ويكون الإنسان معبِّراً ومفصحاً عمّا داخل هذا المكان من قيم واتجاهات وغيرها.

---

1 – جاستون باشلار, جماليات المكان, ترجمة: غالب هلسا, ط1 , 1987 , ص42.

2 – عبد الحميد المحادين, جدلية المكان, ص30.

3 – رواية جبل العَنْز, ص10.

فالشخصية تحدِّد التصوّرات عن المكان الذي تسكنه , والبيئة التي تنتمي إليها عند تفاعلها مع شخصيات أُخرى في أي أماكن متفاوتة. يقول السّارد : " **إنَّ الحكومة ستضيفُ أقساماً جديدة إلى المدرسة, وستبني مستشفى, وتشق طريقاً عريضاً وَسَط الهضاب والجبال , يصل جبل العَنْز بالعُلا, وتبلِّط الشوارع وتبيد الحشرات, فتتحول جبل العَنْز إلى مدينة كبيرة...الخ** "[1], إنَّ الفعل الإنسانيّ على المكان يجعله يتغير رأساً على عقب, فالحكومة التي تعني (البَشَر), سوفَ تقوم بتغيير المكان بفتح الطرق , وبناء المباني الجديدة فلولا هذا الفعل الإنسانيّ لما تغيرتْ تلك الأمكنة وتبدلت ملامحها, وهذا يدل على شدة تأثُّر المكان بالفعل الإنسانيّ.

الشخصيّة تقوم بدورها بتشكيل المكان في ذلك العالم الروائيّ الذي بات يمثِّل الواقع إلى حدٍّ بعيد, فالشخصيّات تعكس الواقع المعيش الذي يمثِّل الواقع التونسيّ الذي لوح له السَّالميّ وأ شارتْ إليه رواياته, فهو يسعى من خلالها إلى تغيير الواقع الذي يأملُ الوصول إليه في تلك الأماكن, فبتغيير الشخصيّات لملامح المكان, تكون بذلك قد أحدثت تغيرات جذرية على حياتها, وقد يطال التغيير المكانيّ التغيير الفكري, فمثلاً, الإنسان عندما يكون قد عاش في مكانٍ مقفرٍ ومنعزل, وبعيد ثم ينطلق بعدها إلى مكان أكثر إتساعاً ورحابة, مكاناً ملاصقاً للبشر, مكاناً يتعرف فيه على بَشَر جدد وأفكارٍ جديدة قَدْ يَبْقَى متلبّساً بالقديم, فيعكس ذلك على المكان الجديد.

أسقط السَّالميّ "**جبل العَنْز** " على الواقع العربي, والتونسي على وجه التحديد, فكان من الصعب على الشخصيّة في نهاية المطاف أنْ تُغِّير ذلك الواقع المرير بنظره فلم يكنْ التغيير سوى تغ يير سطحيّ طفيف لم يُلامسْ الجوهر الداخلي للمكان , وشخصيّاته, فكان التغيير في المكان في البناء , والتطور , ولكن هذا التطور لم يطلْ أفكار الشخصيّات وجوهرها: " إنَّ تصرفات الإنسان وأفعاله هي الحكم على شخصيته, والدليل على نفسيتهِ, والمظهر الواضح لعقليته " [2] فالفعل الإنسانيّ وتصرفاته داخل الحيّز المكانيّ هو الدليل على شخصيّته وما تحمله من أفكار ورؤى.

---

1 – رواية جبل العَنْز, ص16.

2 – عبد الرؤوف زهدي وسامي أبو زيد, فن المقالة, ص105.

**يقول السارد: " يخترق الحديقة ممر طويل مرصوص بالحجارة, تتفرع عنه عدة ممرات ضيقة قصيرة تفضي إلى العمارات المتناثرة, أعبرهُ وأنا أجرجر حقيبتي الثقيلة, متحاشياً ما كان يظهر لي على ضوء فانوس الشارع من حُفَر وقطط تنتقل بين النفايات وبقايا الطعام التي ألقى بها السكان في الممر"** [1] لا يترك الفعل الإنسانيّ دائماً تأثيراً إيجابياً بل قد يكون تأثيراً سلبياً , فقد كانَ هُنا تأثير الإنسان في المكان هو تأثراً سلبيّاً, فقد جعلتْ الشخصيّات المكان غير نظيف وهذا التصرُّف يعكس فكرها وثقافتها التي لم تتطور مع امتداد الزمن وتغير المكان بشكل يختلف عن ذي قبل.

إنَّ المكان هُنا تشكَّل بتشكيل الشخصيّات له, طورت الشخصيّات المكان من حيث المباني, لكنها لم تطور المكان " بفكرها, وإنّما أضفى عليه من سماتِهِ, ومع ذلك فإنَّ مُجمل الروايات التي تُعْنى بها الدّراسة تدل على وجود جدل بين المكان والإنسان, " فللمكان عنصرُ فاعِل في الشخصيّة الروائيّة, يأخذ منها ويعطيها, فالشخصيّة التي تعيش في الجبلِ يطبعها الجبل بطباعه فيظهر أثره في طباع السكان وسلوكهم" [2], والشخصيّة التي تقطن المدينة والأماكن الحضارية تطبعها أيضاً تلك الأماكن بطباعها ولكن من أين تأتي تلك الطباع ؟

إنَّ تلك الطباع التي يتطبعُ بها الإنسان على وفق المكان الذي يسكن فيه أو ينتقل إليه هو طابع إنسانيّ , فالمكان يتشكَّل من خلال ساكنيه كما يقوم هو بالتأثير في الناس.

فرِواية ( **نساء البساتين** ) تَتَحدَّث عن عالمِ أسرة مُتواضعة في أحد أحياء تونس, وهي تدبر أمر مَعيشتها اليومي, التي تعكس فيه التناقضات في الذات التونسية التي يتبين من خلالها العلاقة بين الإنسان والمكان , وتتضح العلاقة على أنَّها علاقة تأثيرية وتأثُّرية, فالشخصيّات مثل شخصيّة ليلى تأثرت بالمكان المرئي وهي بدورها أثَّرت في غيرها من البَشَرِ , وأثّرت في تغيير المكان , وخلق مفاهيم جديدة له , كونها تمثل حالَ المرأة التي تمتلك حضوراً قوياً في مجتمع متناقض في مكان مجرد من التناقضات في الأصل, لكن الشخصيّة نقلت المكان وجعلته متناقضاً كتناقضاتها, كما

---

1 – رواية نساء البساتين, ص5.

2 – محمد عزام, شعرية الخطاب السردي, ص68.

أنَّها جَعَلتْ المكان يَكْتَسِبُ صفات إنسانية تَصِلُهُ بالبشر مثل: الحب والكره, المشاركة والإحساس, فالمكان يكونُ أليفاً إذا ألفَته البَشَر ويحبهم إذا أحبوه, ويضيق عليهم بضيق أفكارهم ويتسع بسعتها.

يقول الراوي على لسان(ليلى) : " لكنّي في بيته كنت امرأة أخرى, لا أدري كيف يحدث ذلك لقد كان يمارس عليّ نوعاً من التأثير يدفعني إلى أشياء لا أتصور أنَّي أستطيع أنْ أقوم بها مع رجل آخر" [1], في المقطع الحواري السابق بَيْنَ الشخصيةِ ونفسها وهذا ما يسمى ( بالمنولوج ) يظهر تأثير الشخصيّة وسطوتها على المكان , فالمكان لم يكنْ مكاناً سيئاً قبل دخول البَشَر إليه , فقد شكَّل البَشَر المكان على وفقِ أهوائِهم وطبيعتهم وحمَّلوا المكان دلالة إنسانيّة كونه أصبحَ مطيعاً لهم مُتِيحاً لهم مُمارسة الرّذيلة التي فعلها البَشَر" يصبح المكان شبكة من العلاقات والرؤى ووجهات النظر التي تتضافر لتشييد الفضاء الروائيّ الذي تجري فيه الأحداث " [2], وبالتالي تتكِئ مشاهد الوصف للمكان على التعبير عن عالم الشخصيّات فيتأثر المكان بالشخصيّة مثل: مزاجها, وطباعها, وأفكارها, كما أنَّ المكان أيضاً يُؤْثّر على تلك الجوانب ويحركها.

يقول السارد : " **أتذكر المقهى الذي شهد جلستنا الأولى, بيت قديم يتكون من غرفة تدخلها بعد أنْ نجتاز عتبة مرتفعة, طاولات واطئة فقدتْ ألوانها من كثرة , الاستعمال نادل عجوز يخاطب الزبائن بالفرنسية** . " [3] إنَّ الروائيّ تَرك الشخصيّة تتحدث لوحدها وتعبر عن أفكارها, وتصف المكان, فالمكان لا يتشكَّل إلا بتشكيلِ الأبطال له, فالبيوت لم تتشكلْ لوحدها بل شكّلتها الشخصيّات, والمقاهي لم تكنْ لتعج بالحياة لولا اختراق الأبطال لها وتشكيلها على وقف أهوائهم. وقد يورد الكاتب أماكن كثيرة الهدف منها خدمة الشخصيّة الرئيسة التي خلقها الروائيّ أيضاً لتخدم غرضه, وتعبِّر عن أفكاره, مثل: معاناة البطل من وطأة المجتمع الذي رجع إليه بعد طول

---

1 – رواية صورة بدوي ميت, ص12.

2 – محمد عزّام, شعرية الخطاب السردي, ص67.

3 – رواية صورة بدوي ميت, ص29.

غياب " بل ترك له بصيص ضوء, بل أنَّه يقيم مقابلة بين أصناف الناس " [1] وكان ذلك البصيص هو العودة إلى وطنه وإلى قريته الأم, التي كانت تضم أمه التي تمثّل له الوطن, والأهل, والجذور.

تبدو" العلاقة بالمكان خاصة, حميمية عميقة ؛ لأَّنها علاقة يعانيها الجسد وتكابدها الروح " [2] ولذلك تظهر الأماكن على أنَّها بَطَلٌ يتفاعل مع بقية أبطال الرّواية ويشاركها, فتكون الحياة قاسية على الإنسان إذا كان يشعر بالغربة داخل تلك الأمكنة, فيشعر بأنَّها ضيقة على الرّغمِ من سعتها, فها هو صالح محفوظ بطل الرواية يشعر بقساوة الحياة في فرنسا على الرغم من أنَّها مكان واسع ومتطوِّر , مع أنَّ صورة فرنسا تبدو مكاناً فنياً أنيقاً وذلك بأبعادها الفنية المحببّة.

وَيُضْفي الكاتب على الأمكنة أشكالاً متعدّدة من التشخيص والتّجسيم, وتكتسب الأمكنة بَعْضَ ما يتصف به البَشَر. يقول السارد في "**صورة بدوي ميت**": " **كانَ المكان غارقاً في الضجيج, والحركة شديدة...الخ**" [3], فالمكان لا يكون صاخباً ومتحرِّكاً إلّا بتحرّك الشخصيّات فيه , والمقهى لم يكنْ ليقدِّم دوره ويحتلَّ مكانته لولا وجود الشخصيّات داخله, فأصبحَ للمكان مَعْنىً لوجود الشخصيّات داخله , واندماجها داخل المكان, وبذلك يكون المكان بديلاً فنيّاً للشخصيّة يُعبِّر عن الأفكار التي تريد ويقدِّم لها التسهيلات كما تقوم هي بالتعبير عن المكان والبيئة التي تنتمي إليها.

إنَّ علاقة الشخصية بالمكان الثابت مثل: البيت أو الحي , والقرية التي تقطنها الشخصيّة تَكْتَسِبُ بّعْضَ أبعاد الشخصيّة, فالشخصية المنظَّمة المنسجمة مع ذاتها تقطن مكان نظيفاً مُنسَّق المكونات, فتختلف عن المكان المُستأجر أو مكان العلم فتلك الأماكن الثابتة يمارس الإنسان فيها حياته كما يريد , ويشكّلها على وفق أهوائه لا على وفق أهواء غيره ولا حتى على وفق أهواء المكان نفسه فمكان العمل يفرضُ عليه أشياء قد لا يرغبها وتملي عليه شروطها, والأماكن الدينية مثل, المَسْجد, هي التي تُشكل بنية

---

1 – إبراهيم السّعافين, نشأة الرواية والمسرحية في فلسطين, ص156.

2 – يمنى العيد, فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب, ط 1, دار الآداب– بيروت, 1998م, ص1116.

3 – رواية صورة بدوي ميت, ص33.

الإنسان الفكرية والنفسية, وتوفر له الأمان والراحة عكس الأماكن السيئة مثل : النَوادي الليليّة التي تم ذكرها في الرّواية, فهي تُشكلِّ الشخصيّة على وفق حواسِّها, وتبعدها عن جادة الطريق الصحيح وتقيد تأثيرها فيها فيكون الأثر الأكبر, والتشكيل النفسي والفكري والجسدي لها. فالمكان المُتغِّير تكون سلطته أضعف على الشخصية وتشكّله هي على وفق أهوائها.

وفي رواية"**عشاق بيَّة**" نَسْتمع إلى الراوي يقول: " **والذي يزيد في حميمية المكان هو بعده عن حركة الطرقات, وضجيجها ... لتجعل من تلك القطعة الصغيرة من الأرض التي يتردّدون عليها مكاناً حميمياً منعزلاً يتيح لعجائز في سنهم أنْ يقولوا أو يفعلوا ما يشاؤون دون أنْ يشعروا أنَّ أحداً من النساء أو الذين لا يريدون مخالطتهم يراقبهم أو ينصت إلى أحاديثهم** " [1] فالأشخاص هُنا كانوا واضحي المعالم وهم المسنون الأربعة, فهؤلاء الشيوخ أثّروا في هذا المكان تأثيراً جلياً فقد كانت هذه الشجرة قاحلة مُهْملة, فلما جلسوا تحتها أحيوها بفكرهم, وبحديثهم, وحتى جعلوا كثيراً من الناس يهتم بأمر تلك الشجرة ؛ فكأنّهم أعطوا لهذا المكان خصباً وحيزاً ومكانة حميمة خاصة لديهم ولدى الآخرين فهذا المكان بسيط لكنهم أضفوا عليه بلمساتهم قدسيَّة ومكانة تجعلهم ينعزلون عن ذلك العالم المُعَادي لأفكارهم ولمرحلتهم العمرية , فبعد المكان عن الناس مَنَحَ حميمة خاصة فالإنسان طالما يبحث عن العزلة حتى يستذكر ما يريد , ويعبِّر عمّا يريد , دون وجود أعين ترمقه يقول السارد : " لم يتبدلْ شيء في زيتونة الكلب رغم الحرّ وتعاقب الليل والنهار, الجذع صلب ثابت في الأرض , والحياة السرية مستمرة داخل التجويف في تناغم وانسجام " [2] هكذا ينظر إليها الراوي والبَرْني كما يَحْلُو لهما, ولو رآها آخرون لأعطوا وجهات نظر مختلفة, وهذا يُؤكّد دور الإنسان في تحديد هوية المكان.

إنَّ المكان بالرغم من أهميته داخل العمل الروائيّ فهو لا يتبلور ولا يتشكّل إلّا من خلال الشخصيّات التي تحرّك الأحداث في داخله, وتبين أثرها في المكانِ وتأثير المكان عليها " فزيتونة الكلب " لم تكنْ لتتغير , فهي مجرد جماد ثابت لا يتأثّر فيما

1 – رواية عشاق بيَّة, ص14

2 – رواية عشاق بيَّة, ص161.

حوله ولكن باختراق المُسنين الأربع ة لهذا المكان عجَّ بالحركة وبالفكر والتناغم, لذلك أصبح للمكان مكانة خاصة تعبِّر وتؤثِّر وتتأثَّر بتأثير الشخصيّات فيه , وَبِفْرضُ سيطرتَها على ذلك المكان.

إنَّ وجود الإنسان في المكان أدّى إلى تغيير العلاقة بينهما, وأخذت تلك العلاقة بالتنامي " حتى أصبح المكا ن من القضايا التي يخترقها الإنسان بالبحث بُغية التّعمُّق فيه وتمام إدراكه" [1] فالإنسان يحاول دائماً أنْ يخترقَ المكان على عكس اختراقه وإدراكه للزمان الذي يدركه إدراكاً غير مباشر من خلال أفعاله على عكس المكان الذي يدركه إدراكاً مباشراً.

نقرأ في "**أسرار عبدالله**": " الدقائق تمضي وعبدالله منتصب أمام الفجوة , يراقب باهتمام كلّ ما يحدث أمام الدّار وحولها لكن لا أثر للعكري, يدرك أنَّه آن الأوان لكي يعيد أوراق الصبار إلى الفجوة ويغادر المكان فوراً " [2] .

إنَّ حركة المكان هُنا مُسْتقاة من حركة الشخصيّة داخلها, وهُنا تظهر علاقة التأثير المتبادل, فعبدالله استغل هذا المكان لمراقبة زوجته السابقة ( العكري ) وبدخوله المكان جَعَله متحرّكاً معبّراً عن أحاسيسه وتوقه لمشاهدة زوجته السّابقة , والمكان سَمَحَ لعبداللهِ بممارسة هوايته اليومية وهي مراقبة زوجته فالمكان يبدو هُنا مندمجاً مع الشخصيّة مع ارتباطه بالحدث ومسير الزمن وَتَدفُّقه.

يقول السّارد:

" وفي المكان الذي يذهب إليه في بعض الأحيان لمقابلة الرّجال الذين لا يزال حريصاً على لقائهم, نعم في هذا المكان الذي يبعد بضع مئات من الأمتار, علم أنَّ "عِصَابَةُ الغَرَابَةِ " اقترفت جريمة بشعة في دوار قريب من العُلا...الخ " [3] لقد رَصَدَ عبدالله في هذا الإطار ما يدخل الخوف والاضطراب إلى المكان , فكان التأثيرُ سلبيّاً في المكان المُحيط, وبالتالي أدّى ذلك إلى خلق أجواء الخوف والعدائيّة داخل المكان, أي أنَّ الشخصيّة قد فرضتْ سطوتها على المكان وعلى الشّخصيّات الأخرى, فتلك

---

1 – يوسف كرم, تاريخ الفلسفة الحديثة, القاهرة, دار المعارف, ط5 , 1986م, ص222.

2 – رواية أسرار عبدالله, ص105.

3 – رواية أسرار عبدالله, ص237.

العِصَابَة هي شخصيّات من محيط البطل المكانيّ تُعارضه وتحاول أنْ تُعرقل مسار حياته, فتصف الشّخصيّة المكان بصفة قاسية بسبب قسوة الظروف المحيطة بها.

## الفصل الثالث

## جماليات التشكيل الفني للمكان

### 1.3 جمالية اللغة السردية في توظيف المكان

إنَّ للمكان جماليات خاصةً حين يخلقها الروائي في وقفاته الوصفيةِ, والتفسيرية, التي يوظفها في رواياته, فهي تضفي رونقاً , يتجلى ذلك أيضاً باللغةِ الشعرية التي أصبحتْ تميز لغة النثر كما تميز لغة الشعر.

وتكمنُ تلك الجماليات في الانزياح اللغوي, الذي يعود بدوره أيضاً , عندما يُسْتغلُّ بشكل إبداعي , إلى مقدرةِ الروائيّ على الانزياحِ في المكان وتوظيفه بشكل يخالف المألوف, وهو ما يميّز اللغة الشعرية عن غيرها وحتى خروجها الذي تقصده هو خروج الأماكن عند تحليلها عن المألوف الواقعي , ويبرز ذلك عندما يجعل الروائيّ المكان كالإنسان يفرح, ويحزن, وينسجم, ويشارك, ويطبّع الشخصيّة ويُ ؤثر بها كما هي تؤثر به, ويجعل المكان جزءاً من الذات الإنسانية. ويذهب جان كوهين إلى أنَّ اللغة الشعرية " هي علم الأسلوب الشعري, والأسلوب هو كلّ ما ليس شائعاً ولا عادياً ولا مُطابقاً للمعيار العام المألوف " [1] والمعنى المقصود هُنا أنَّ اللغة الشعرية توظَّف للغة النثر, حيثُ إنَّ مصطلح الشعرية لم يَعُدْ يخصُّ الشعر وَحْد هُبل أنَّ اللغة الشعرية دخلت على الأجناس الأدبيَّة وأصبحتْ تميزها عن غيرها.

وسوف تقوم الدّراسة في هذا الفصل بإظهار جوانب الشّعرية في وصفِ المكان فقط, ويكون ذلك بتحديد ملامح الانزياحات اللغوية الشعرية في المكان التي يصعب تحديدها إلّا من خلالِ دراسة مستفيضة تكشف القِناع عن الانزياحات والخروقات للمعايير اللغوية.

**أولاً: اللغة السّردية ومستوياتها في وصف المكان.**

إنَّ اللغة السّردية التي اعتمد عليها الحَبيب السَّالميّ في رواياته المختارة تقسم إلى قسمين وهما :

---

1 – جان كوهين, بنية اللغة الشعرية, محمد الوالي, دار توبقال, الدار البيضاء, 1998م, ص15.

1- اللغة التّصويرية 2- واللغة التقريريَّة المباشرة النَّفْعيَّة.

ولابدّ أنْ هذين القسمين يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بثقافة الروائيّ.

**أولا: اللغة الفنيَّة التصويرية.**

وهي لغة تستعمل " للدَّلالة على كلِّ ما له صلة بالتعبير الحِسِّي, وتطلق أحياناً مرادفة للاستعمال الاستعاريّ للكلمة " [1] والصورة الفنية هي وسيلة الكاتب والأديب لنقل أفكاره إلى المتلقي, فالصورة الحسيّة هي الصورة الأكثر رُسوخاً في ذهن القارئ أو المستمع, وللخيال دورٌ كبيرٌ في خلق تلك الصورة. أمّا الباحث شكري عزيز الماضي فيرى أنَّه لا بد للروائي من دراسة اللغة وطاقات الألفاظ والجمل والصور وطاقات الخيال على الابتكار وإيجاد العلاقة الجديدة بين مفردات الواقع التي توجد بينهما هذه العلاقة من قبل أنْ يوجدها الفنان, ومن هُنا فإنَّ " تلك الصورة تقدِّم تركيبة خيالية عاطفية في لحظةٍ من لحظات الزمن " [2] فهي تدفع الأديب أثناء التعبير عن تجربته الروائيّة إلى استدعاء الواقع والذكريات"[3].

ويتَّضح من الاقتباسات السابقة أنَّ اللغة التصويرية الموظَّفة في السرد وفي المشاهد الوصفية للمكان هي عبارة عن صورة يبتدعها الأديب مستحضراً أفكاره, وذكرياته, بالإضافة إلى تلميعِ تلك الصورة عندما يُضفي عليها خياله وأحاسيسه , فالصورة الحسية التصويرية هي الصورة الأكثر التصاقاً بالذهن ؛ لأنَّ القارئ والمستمع يحسَّها ويستشعرها . وروايات السَّالميّ اعتمدت إلى ح دٍّ كبيرٍ على الوصف , وهو العنصر الذي كان أكثر حضوراً , فكان من الضروري أنْ تلجأ الروايات إلى لغة الوصفِ , سواء أكان ذلك الوصف مباشراً أم غير مباشر " إنَّ المكان في الرواية يكتسب أهمية بالنسبة للسّرد وذلك لحظة الوصف بشكل مطول ودقيق مثلما يكتسب

---

1 – مصطفى ناصف, الصورة الأدبيَّة, ط2, دار الأندلس– بيروت , 1983, ص3.

2 – عزّ الدين إسماعيل, التفسير النفسي للأدب, ط4, دار العودة– بيروت, 1988م, ص71.

3 – أحمد علي دهمان, مبادئ النقد في نظرية الأدب, منشورات جامعة البعث, الجمهورية العربيَّة السورية, 1983م, 1984م, ص47.

هذه الأهمية أيضاً عندما نراه ي وَسّس مع غيره من الأمكنة الموصوفة في فضاء الرواية"[1] الأبعاد الإنسانية التي يقصدها الروائي, ويأمل إلي تغييرها أو ترسيخها.

فكما هو متعارف عليه في عالم الرواية أنَّ السّرد يسرّع الأحداث وجريان الزمن, أمَّا الوصف فهو يجعل الأحداث تجري ببطْء شديد , وهذا ما يحقق غاية المرسل من الوقفات مثل, التفسير والتجميل والإيهام, والتأسيس لأحداث جديدة.

إنَّ اللغة التصويرية في المقاطع الوصفية تعتمد اعتماداً كبيراً على العناصرِ الإيحائية غير المباشرة وما تبغيه هذه هو رصد الدّلالات اللغوية للمفردات وتحليلها وتوضيح إيحاءَاتها في مكانها الجديد.

"ومن الممكن أنْ يتم السّرد بدون الإ شارة إلى مكان القّصة ومكان اللحظة السَّردية, إلّا أنَّ المكان يمكن أنْ يلعب دوراً مهماً في السرد, وإنَّ ما يسمى الإيحائيّة التي بين الأماكن يمكن أنْ تكون مهمة تؤدي وظيفة إيهامية " [2]. في رواية"عشاق بيَّة" وفي مَعرض وصف ساعة البَرْني يَنقُلُ لنا الراوي: "**وبعد أنْ يصف سطحها الأملس النّقي الذي تنزلق عليه أصابعه لشدة نعومتها, وقاعدتها الذهبيَّة التي تجلب له ملامستها مُتعة هائلة خصوصاً في اللحظات التي تسبق القيلولة كما تخفف من انفعاله.** " [3] يحاول السَّرد من خلال الوَصْف إشراك المتلقّي بمتعَة ما يُلْمَس, ولكنَّ الوصف جاء هُنا مَاديًّا في غالبهِ؛ إذْ تطالعنا مفردات تدرك من خلال الّلمس الذي يقود إلى جعلِ الصّورة حركيّة ممزوجة بالخيال حتى تترسّخ تلك الصورة في ذهن المتلقي.

إنَّ هذا النص يصف حالة البَرْني وهو يتحدث عن ساعته ( الألمانية الصنع ), يحاول هذا الوصف أنْ يُضْفي الصفة التَّجميليّة على الأشياء المحسوسة , فتلك الصورة وصفت بلغة تصويرية استغرقت زمناً مُعيّناً ولكن يبدو وكأنَّها التقطت دُفعة واحدة. يتمُّ عَرض الواقع في وجوده المكانيّ, مع إعطاء صورة واضحة ومفصلة لهذا المكان, فمن الطبيعيّ أنْ يتابع الكاتب في وصفه مكاناً ما أو إنساناً أو حتى حدثاً من الأحداث التي يريد أنْ يقدم لها إضاءة ليؤكِّد فكرةً ما, وكان ذلك باختيار لغة مناسبة لكل شَخْص من

---

1- حميد لحمداني,بنية النص السردي, ص67.

2 - جيرالد برنس, المصطلح السّردي, ص214.

3 - رواية عشاق بيَّة, ص11.

الشخصيّات الأربع في الرواية وهم : ( المكي – الصّبايحي, والبَرْني, والطيِّب ) فكانَ لكلِّ منهم طريقة في وصف الأشياء ولغة مميزة في عرضها, وقد يُشرك هؤلاء المسنُّون في وَصْفِ شيءٍ واحد, ولكن كلُّ يُعبِّر عن وجهة نظره, فإذا كانت ساعة البَرْني تُمثِّل الأصالة الشخصيَّة والاعتزاز بالأب, فإنَّها تكون محطّ سخرية من واصف آخر.

ولجأ السَّالميّ إلى اللغة الإيحائية في الروايات المختارة , فمثلاً عندما يقول الراوي: " كم هو صعب شتاء هذا العام !! البرد يخترق كل ما كَوَّمْتَ على جسدك ورأسك من ثياب, وكمائم ثقيلة ويتسلل إلى ما تحت الجلد, وفي الخارج سحب تحجب الشمس ولا تتيح الاستمتاع بدفئها إلا للحظات قليلة ...الخ " [1] لقد وظَّف السَّالميّ اللغة هُنا بشكلٍ إيحائيّ مشحونة بالعبارات المنزاحة مثل: " البرد يخترق جسدك, ويتسلل إلى ما تحت الجلد, وغيرها للتعبير عن نفسيّات الشخصيَّات تحت هذا المكان وهو (زيتونة الكلب) واستخدم هذا الوصف لِعَرْض الحالة النفسيّة التي تعيشها الشخصيّات, فالبرد في هذا المكان ليس فِعْليَّاً بل هو برد العاطفة , والجفاء في ذلك المجتمع الذي فضَّلوا أنْ يبتعدوا عَنْهُ, فالجوُّ في تلك القرية كالسحب تحجب الطمأنينة والراحة النفسيّة عنهم, وهذا يدلّ على أنَّ المكان اكتسب سِماته من الحالةِ النَّفْسيَّة التي تَحْياها الشخصيّات الأربع, ولا يعني ذلك بالضرورة أنَّ المكان جاء مجرداً, وإنَّما يرتبط بشكلٍ أو بآخر بالمناخ العام للمنطقة (العُلا)؛ بَيْدَ أنَّه في الوقت نفسه يتناغم مع حالة الشخصيّة بشكل عام.

إنَّ الزمن نَفْسَه يتغيَّر عنه التصاقه بالمكان وارتباطه به, فلا يحسُّ المَرء بطوله أو قِصره, يَعْمَل الانسجام بَيْنَ الشَّخصيَّات واشتراكها في الهموم والهواجس على إبعاد الزَّمن, والتأكيد على المكان "**زيتونة الكلب**", قد يبدو الزمن سريعاً أحياناً, ولكنّه قد يُقدَّم بطيئاً ثقيلاً, كما يقول الراوي:" وها هم الآن جالسون في استرخاء وتآلف مع الأمكنة التي اختاروها, كما لو أنّهم جاءوا منذ ساعات طويلة ..الخ " [2]. استخدمت اللغة هُنا في وصف حالة الشّيوخ الأربع تحت هذا المكان الذي ألفوه وأحبوه مرتبطة " بالوصف

---

1 – رواية عشاق بيَّة, ص88– 89.

2 – رواية أسرار عبدالله, ص113.

وتشكيل الفضاءات, ووصف الفضاء في زمنهُ " [1] ففيها وصف للحالة النفسيّة للشخصيّات, وهذه لوحة رمزية توحي بالطمأنينة التي تكشف الشخصيّات في هذا المكان القريب من ذاتهم, والمريح لنفسيَّاتهم في وقت كانت تعاني فيه من الاضطراب, والاغتراب الداخليّ, في أمكنتهم وبيوتهم . وفي رواية (أسرار عبدالله), تَتشكَّل اللغة من المفردات العادية, قليلة الإيحائيّة في الكثير من المقاطع الوصفية.

يقول الراوي: " وحين يتطلع من جديد إلى الدّار يفاجأ بأنَّ بابها مفتوح على مصراعيه...وأنَّ زهرة منتصبة أمامه.." [2] يظهر الوصف السابق سمات الحياة اليومية في بيت عبدالله, وقد بَدت شخصيّة عبدالله غير واضحة المعالم فهو دائم القلق والخوف والاضطراب , فأي شيء يقلقه يقضُّ مضجعه فما أنْ رأى باب بيته مفتوح اً حتى بدأ يتشكّل عنده الخوف والتساؤلات فاللغة هُنا تمزج بين التصويرية والنَّفعيَّة التقريريّة. ولكن ذلك ليس عاماً, فهنالك مقاطع يتخلّلها الإيحاء والوصف الشّعريّ, وقد يمزج الكاتب بَيْنَ النمطين في مقطع واحدٍ.

نقرأ:"**حين تغادر النساء البِئَر يعم المكان صَمْتٌ ثقيل يقطعه بين حين وآخر صياح الدّيكة, إلّا أنَّ هذا الصمت لم يستمرْ طويلاً فقد عادت الحركة إلى البئر ولم تنقطعْ إلا بعد أنْ يَتلاشى الغَبَش و يَنتشر ضَوْءُ الفجر.** " [3] تبدو الصور الأكثر حضوراً في المقطع السابق صوراً بصرية و جُمَلاً انزياحية " فقد يكون انحراف اللغة يعكس انْحرافاً في مجالات أخرى " [4] وهذا الانحراف هو تحول في حياة عبدالله فهو مشتت فكريّاً, وذهنيّاً انقلبت وانحرفت حياته رأساً على عقب, فبعد أنْ كانَ دركيّاً ومعه سلطته يُمارسها على النّاس, وقبض على الكثير من المجرمين, فالآن تحولت حياته بعد أنْ تقاعد وتقدَّم بالسّنِ, وأصبح يخاف من العِصَابةِ التي تقتل الأعيان, حتى أنَّه أصبحَ ينام في الحمام من شدة الخوف , ولم يكنْ يشعر بالأمان حتى داخل بيته,

---

1 – محمد عزّ الدين, الكتابة الروائية, ص80.

2 – رواية أسرار عبدالله, ص103.

3 – رواية أسرار عبدالله, ص102 .

4 – إبراهيم عبد الجواد, الاتجاهات الأسلوبيَّة في النقد العربي الحديث, طبع بدعم من وزارة الثقافة – عمان – الأردن, ط21, 1997م, ص32.

وغرفته. فكانت تلك الوقفة الوصفية تهدف إلى تفسير الحالة النفسيّة التي وصل إليها عبدالله وآلت إليه النفسية, وتبع ذلك الانحراف تحوّلٌ في كلِّ حياته.

إنَّ المشاهد الوصفيّة فيها صور ومجازات واستعارات, فكما هو متعارف عليه أنَّ الصورة هي جوهر العمل الأدبيّ وكل ذلك يدلُّ على أنَّ اللغة تشكِّل الروابط الاجتماعية فاللغة لها دور كبير في تقوية الوشائج الاجتماعية وتأطير العلاقات وجعلها أكثر انسجاماً وترابطاً . ومن أمثلة التوظيف المجازي للغة نقرأ في رواية " صورة بدوي ميت":

"عجيبٌ عملُ الذاكرةِ...عجيب منطقها الداخلي.. خلال سنوات عديدة لم نتحدثْ, كأنَّ الذّاكرة أقصتها, أو محتها تماما, فجأة عادت الذاكرة لتتملك حواسنا بين الحين والآخر."[1]

يحاول السالميّ بلغته المجازية, تأطير الحالة النفسية للشخصية, عندما تسترجع الذكريات التي كان لها جلّ الأثر في تغيير مسار حياتها, وتبدل حالها. إنَّ اللغة الشعرية أسعفت الكاتب على التعبيرِ عن حال الشخصيّة, وأحاسيسها, تجلت في سرد الصورِ الفنية المبنية على المجاز, نقرأ في رواية"جبل العَنْز":

" **أنظرُ بشرود إلى الشمس, كم هي رائعة! كل شيء يمضي, يجرفه التيَّار, هكذا يقولون.. سرّحت نظري بعيداً. الأرض تمتدّ حتى الأفق, والسماء مرعبة بصفائها اللانهائي, جلتُ بنظري في الحشد الجالس كقطيع ماعز.**" [2] إنَّ المتتبع لتركيب الجمل في بعض المقاطع السردية والوصفيّة, يدرك أنَّها تقترب من لغة الصورة الشعريّة, اعتمد فيها الكاتب على المجاز, والتشبيهات, وهذه الصياغة أعانته على المغزى والرؤيا المقدمة للمتلقي, نقرأ في رواية" **عشاق بيَّة**": "**أخذ المولدي يسير في كل الاتجاهات كالمجنون. يغرف التراب ويذرّيه ...فجأة قال وعيناه الضائعتان في محجريهما, كعينيّ ابنه البَرْني تلمعان من شدة الحماس هُنا. احفروا هنا.**" [3] وهذا وصف للحالة النفسية للشخصية.

---

1 – رواية صورة بدوي ميت, ص62.

2 – رواية جبل العَنْز, ص 36.

3 – رواية عشاق بية, ص 175.

تكشف اللغة المجازية عن اتِّكاء الكاتب في الكثير من المقاطع على الصور البيانية التشبيهية التي لها دلالات تتعالق مع حالة الشخصية.

نقرأ في رواية" **نساء البساتين"**: " تنقل عدوى الضحك إلى يسرى, وأنخرطُ بدوري في الضحك. ويعم المكان صمت ثقيل [1]". إنَّ اللغة المجازية تندمج في روح الشخصيّة وتتآلف مع المكان, فهي تصوّر الفرح بالعدوى؛ لأنَّه انتشر فيما بين الشخصيّات, وعبَّر عن فرحها وسعادتها.

أمّا التوظيف العادي للغة من أمثلته ما نقرأ في" صورة بدوي ميت": " **جلسنا في صالون واسع ونظيف يحتوي على أثاث جيد . اختفى الرجل للحظات سمعنا خلالها همساً ثم ضحكاً خفيفاً ثم وقع أقدام.** " [2] إنّ الوصفَ ذو لغة مكشوفة مألوفة, "فالروائيّ حين يلجأ إلى الوصف, يبذل قصارى جهده للبرهنة على قدرته أنْ يجعل الأشياء أكثر وضوحاً " [3] فالمقطع السابق يفصح لنا أنَّ اللغة الوصفية استخدمت هنا لإثبات واقعية الأحداث وصدقها فعندما يصف لنا البيت بأنَّه نظيف وذو أثاث جيد وحركة الرجل وهمسه ووقع أقدامه فهو يصور لنا واقعيّة الأحداث وصدق المكان وقد صيغت بلغة مباشرة إخبارية.

ومن أمثلة اللغة المباشرة الإخباريّة قول الراوي في الرواية نفسها:

" مقبرة صغيرة تطلّ على البحر, أحجار متناثرة, صوت أمواج هادرة, وتراب في لون البنّ " [4] في المقطع السابق تعبِّر اللغة عن الاضطراب النفسي للشخصيّات وذلك من خلال طريقة وصفها للمكان الموجودة فيه (مقبرة) (بحر) (أحجار) (أمواج هادرة) ( تراب في لون البُنِّ) كلّ العبارات الوصفية السابقة هي إسقاطات للبرهنة على العلاقة بين المكان والشخصيّة, وقد تكون تَ عْبيراً عن رؤيا الشخوص, وكأنَّ المكان له وقعٌ كبيرٌ على الذّات الإنسانيّة , ووصف تلك الأماكن جاء تعبيراً عن الحالة النفسيّة المضطربة للشخوص, وذلك الوصف لم يقتصرْ على إسقاط الصفات , بل وظف فيه

---

1 – رواية نساء البساتين, ص 67.

2 – رواية صورة بدوي ميت, ص43.

3 – موقع الكتروني www.hizwa.com.

4 – رواية صورة بدوي ميت, ص45.

الصور الفنيّة فجمل لَوْن التراب كلون البن أسود, ودلالة توظيف اللون في الوصف لها هدف يسعى الروائيّ من ذلك إلى إيصال فكرةٍ ما , وهي وجود علاقة تأثيرية بين المكان والشخوص, فقد جَعَلَ الروائيّ المكانَ منسجماً مع حالتهم النفسيّة, وفي دلالة توظيف اللون التي" يمدّنا بصورة مرئية للمكان أو أحد معلقاته, كما أنَّ تحديد الألوان أو التركيز على لون له دلالة استناداً إلى أنَّ هناك ألوان اً أساسيّة وأخرى ثانوية, فتلك مزيَّة في استخدام اللون؛ لأنّها ترتبط بعملية التفكير والانفعالات " [1].

فلكلّ لون دلالته فمثلاً اللون الأسود يدلّ على القلق, والاضطراب النفسيّ, وعلى سوداوية التفكير, واللون الأبيض يدلّ على السلام ولبقية الألوان دلالاتها. والإلحاح على اللغة التقريرية يُعدُّ الأكثر حضوراً في سرْد السَّالميّ في تصويرِهِ للمكان, ومن أمثلة ذلك:

يقول السّارد:" **في البداية يتراءى لي طريق رمليّ طويل, ثم حقول تحدُّ بعضها أسيجة صبار ثم أبقار هزيلة, و هناك ثلاثة أطفال** " [2] تظهر اللغة التصويريّة في المقطع السابق على أنَّها لغة بسيطة بعيدة عن الانزياح والصور الفنية, فاستخدمت تقنية الوصف لكي يعبِّر بها الكاتب عن رس وخِ جوانب حياة الشخصيّات وأحوالها النفسية, والاجتماعية. وقد يكون الوصف للدّلالة على تبدّل الزمن وتغيره, فبطل الرواية كان يعيش في فرنسا والآن يعود إلى قرية نائ ية وريف جاف لا يحمل في طياته التغيير. يقول السارد :" **الصوت كان واطئاً كأنَّه قادم من تحت الأرض, رائحة ندٍّ وتبن نديّ, تقدّمت من البيت وقد ملأني إحساس بأنّي في مكان مقدس اجتزت عتبت ه, كانت الزوايا معتمة, ثمَّة حصير على الأرض ...الخ.** " [3]

جاء المقطع السابق يرصد مشاهدات (الأستاذ) في البيت فشكَّل ذلك الوصف لوحة فنية بلغة جميلة ودقيقة في الوصف, فاللغة شفافة فيها جنوح قليل إلى التّشبيه, وقد عرضتْ نمط البيت وحالته التي شاهدها عليه الأستاذ, فاللغة قد رَسَمت المكان بالكثير من الدّقة والوصف الجميلِ الذي صور لنا الأحداث على أنَّها ليست خيالية بل

---

1 – موقع الكتروني, www.nizwa.com.

2 – رواية صورة بدوي ميت, ص56.

3 – رواية جبل العَنْز, ص9.

هي أحداثٌ واقعية, فاللغة هي دائماً مادة النصّ الأدبيّ, فكان الوصف معبراً ومتلائماً مع الحالة النفسية, والاجتماعية للشخصية, المكان صامتاً على الحالة النفسيّة التي اكتنفت البطل ." والمجاز يكون قادراً على انتهاك حدود اللغة العادية " [1]. تعدَّدت عناصر الوصف ومفرداته فشملت الصَّوْت الخافت الذي امتزج بالرائحة المتميزة؛ مِمَّا جعلَ المَشْهد أكثر وضوحاً, فإنَّ تصميم المكان جاء من خلال تخيُّل حَوَّلته اللغة إلى فضاء مَقْروء, فاللغة أدّتْ دورها في الفضاء الروائيّ.

يقول السارد : "**جلت في بنظري في الحشد الجالس على الأرض كقطيع ماعز يستريح, ثم عدت إلى إسماعيل أبحث في وجهه أبحث عن شيء غامض, انبجس فيّ فجأة كما ء في قرية صحراوية غافية ...الخ** " [2] إنّ السَّالميّ يحاول بالمجاز والاستعارة أنْ يظهر السخرية المريرة وذلك بقوله : ( كقطيع غنم ) و ( قرية صحراوية غافية ) فيكون بلغته المجازية قد استحضر واقعهم المرير, وفقرهم, ولعلَّ استخدامه كلمة (الصحراء) يدلّ على حياة الجّدب, والعوز, والانعزال الذي يعيشونه.

يقول السارد :

" الظلام أسود كثيف , البصر عاجز عن اختراقه , والمكان حولي غارق في سكينة ثقيلة, كنت مستلقياً على الفراش أحدّق إلى السقف والكتاب الذي معي انتهيت من قراءته. " [3] في المقطع الوصفي السابق مزج السَّالميّ بين اللغة التصويرية واللغة المجازية ؛ ولعلّ لذلك المزج رؤية تقدم, فالظلام الأسود الكثي ف يعبّر عن الحالة السوداوية التي يعيشها داخل هذا المكان, والبصر العاجز عن النظر إلى هذا المكان بنظرة غير التي تحققتْ عنده, أثر الصدمة التي واجهها في هذا المكان, ولقد أنسَن السَّالميّ المكان, وَجَعله يُشَارِكُه تلك الوحدةِ والخوف القاتل في هذا الجبل.

عندما "يصف الإنسان الأشياء, فإنّما ينطلق من تصوراته للأمكنة التي تحتويه " [4], وإنَّ تصوير الأمكنة والأشياء التي تحويها لفائدة, إمّا لنقل الصورة حية لنا لتلك الأمكنة

---

1 – هيام شعبان, السّرد الروائي, ص57.

2 – رواية جبل العَنْز, ص36–37.

3 – رواية جبل العَنْز, ص38.

4 – عبد الرحيم مراشدة, الفضاء الروائي, وزارة الثقافة, عمان, ط1, 2002م, ص145.

وإمّا لجعل القارئ يخوض في تصميم تلك الأمكنة ويتخيلها " فاللغة إذا تفعل فعلها في البناء الروائيّ ويعززها الأسلوب الخالق للتصوير" [1], هذا التعزيز, تميز به السَّالميّ من خلال رسم الصور المجازية والتعبيرة التي تخدم الرؤيا التي يزج بها عبر الرسم المكاني بالمقاطع الوصفية.

تأخذُ اللغة الطابع الدّرامي المتلاحق في تصوير المكان, ففي "**نساء البساتين**" يقول الراوي : " تعيد يسرى الملابس إلى الكيس بعد أنْ طوتها بعناية, ثم تغادر الصالون مصطحبة وائل إلى فراشه, يَعمُّ صمت ثقيل" [2].إنَّ المقطع السابق يحمل القارئ على أنْ ينجذب لذلك المشهد الحركيّ وكأنّه يشاهد هذا المقطع على شاشة التلفا ز, وتترجم تلك المشاهد إلى حركات سينمائيّة, فاللغة سهلة وبسيطة معبرة, ومناسبة لوضع الأسرة وبساطتها.

إنَّ المكان, أو بعض مُتَعلَّقاته له دور كبير في تقديم رؤية مناسبة عن ذلك المكان, نقرأ في الرواية ذاتها:

" **تعيدها إلى علبة الكرتون وتقول لي:**

**يكثّر خيرك .**

**يسألها إبراهيم باستغراب :**

**تتحجَّبين ..وتلبسين هذه البلوزة ؟**

**تردُّ وهي تضحك:**

**وما المشكلة ؟ سألبسها في البيت لما نكون وحدنا.. ولما أخرج ألبس السفاري فوقها ..وهكذا ما يشوفها أي حد** " [3].

يجسد لنا المشهد الحواري السابق داخل البيت, واقعيّة الأحداث , في تونس بَعْد الانفتاح الذي وصلت إليه المرأة التونسيّة, والتي ح ظيت فيه المرأة بحضورٍ قويّ, في هذا المجتمع الكثير المتناقضات, وخاصة في لباس المرأة وجوهرها الداخلي, فهي مثلاً ترتدي الحجاب لكنَّها لا تطبق ما جاء به الشرع من التزام في أخلاقها, وفكرها, وهذا

---

1 – عبد الرحيم مراشدة, الفضاء الروائي, 146.

2 – رواية نساء البساتين, ص8.

3 – رواية نساء البساتين, ص10–11.

كما ظهر في الرواية ليس على وجه التعميم, وقد كانت اللغة في المشهد الحواري السابق داخل (المكان) لغة عَفْويَّة دقيقة ومكونة من جُمل قصيرة واضحة ملائمة لطبيعة الأسرة وثقافتها, مع اللجوء إلى استخدام بعض الكلمات العامية مثل: (يكثر خيرك) و (البلوزة) و (ما يشوفها حد) وتلك الجُمل القصيرة توحي ببساطة الشخصيّة, وضعف لغتها, وثقافتها فلم تكنْ اللغة عصيَّة على الفهم.

يقول الراوي البطل :

" **أسير على مهلٍ في شارع الحبيب بورقيبة الذي يخترق مركز المدينة. أنتقل من رصيف إلى آخر متطلعاً إلى وجوه المارة , وواجهات المحلات التجارية, حين أشعر بالتعب أدخل المقهى, اتضح عندما دخلته أنّه مكيف** ." [(1)]

تصور لنا اللغة الوصفية في المقطع السابق (الشخصيّة) وتكونها, وحركتها وانتقالها داخل المكان, فهو ينقل واقع الشخصية, وحياته اليومية. فاللغة دلّت على حالة التّشتت الفكري للشخصية ؛ فهي تنتقل بسرعة من مكان إلى آخر, وفي ذلك الوصف والمشهد التصويري الذي يرمي الروائيّ من خلاله إلى بث المصداقية في تلك الأحداث والمشاهد, وحول البحث عن الأُلْفَةِ والدفْء النَّفسيّ, يحدثنا البطل قائلا:

" منذ ذلك اليوم صار لي مكان في الشقة, مكان لي وحدي, أهرب إليه وأختلي في نفسي, مكان ألجأ إليه أيضاً كُلَّما أردت أنْ أطّلع قليلاً ..الخ. " [(2)] لقد قدم الراوي بلغتهِ المكان بشكل غير منعزل عن سائِرِ عناصر السرد, وإنَّما جعلها متداخلة . وعناصر السرد هي: ( الزمان- المكان- الشخوص...الخ) إنَّ في ذلك المشهد بُعداً نفسياًّ؛ كون الشخصيّة تبحث عن العزلة, التي طالما كانت تبحث عنها, فهذا المكان الضيق يُعْتَبر مكاناً آمناً ودافئاً , للشخصية وكانت " اللغة شاعرية عفوية, وهي لغة الحياة اليومية للشخصية, فاللغة لم تكنْ أعلى من ثقافة الشخصيّة, ولم تكنْ أيضاً أقل منها فعبرت عنها خير تعبير وهذا يحسب لثقافة الروائيً ولغته القوية في التعبير عن الأشياء"[(3)].

---

1 – رواية نساء البساتين, ص25.

2 – رواية نساء البساتين, ص32.

3 – حنا مينة, هواجس في التجربة الروائية, دار الآداب, ط1, 1982, بيروت, ص 150.

في معرضِ الحديث عن اللغةِ المباشرة النَّفْعيَّةالتي عبِّر فيها الرّوائيّ عن أفكارِهِ ومضامين كتاباته , وقيمه , والرؤى التي يُحمِّلها لشخصيّاته, بصورةٍ مباشرة, فهي لغة بعيدة عن الإيحاء والمجاز , مُبسّطة قريبة من المستوى الفكريّ, والثقافي للشخصيّا ت. يحرص الحبيب السَّالميّ على توظيف المستوى التَّق ريري في رواياته , فهو في الكثير من الأحيا ن يلجأ إلى استخدام اللغة المباشرة, ولغة التواصل اليومي, واللغة الشعبيَّة.

أمّا **اللغة المباشرة**, فتغطّي معظم رواياته التي تناولتها الدراسة؛ ففي "صورة بدوي ميت" يتم إخبارنا من خلال الراوي على النحو الآتي:

" **لقاؤنا الأخير تملكني لفترة طويلة, وتحوَّل إلى مشهدٍ دائم الحضور في ذهني. لم أكنْ أتصور أنْ تنتهي علاقتنا بمثل تلك البس اطة** " [(1)] لقد وظف السَّالميّ اللغة هُنا ببساطتها التي عبَّرت عن حال الشخصيَّة, وعن صدمتها عندما تركها حبيبها , وانتهت علاقتهم ا بهذه البساطة, فهي لغة مباشرة, لم يلجأ فيها الروائيّ إلى الخيال, والمجاز اللغوي, فقد صَوَّرت بكل بساطة وبشكل مباشر , حُزْنَ المرأة وتعجبها كيف انتهت علاقتهما بهذا الشكل, فعبَّرت اللغة عن مشاعر الشخصيّة بصورة مباشرة , فاللغة حملتْ أفكار الروائيّ في الرواية , فكانت الوعاء الذي يَحْمل شَبكة العناصر الروائيّة كالزمان والمكان والشخصيّات, والسّرد, والحوار والوصف.

وممَّا يُعدّ من المباشرة: " أتذكرُ المقهى الذي شهد جلستنا الأولى. بيتٌ قديمٌ يتكون من غرفة واحدة ندخلها بعد أنْ نجتازْ عتبة مرتفعة, طاولات واطئة فقدتْ ألوانها من كثرة الاستعمال."[(2)]

استعمل الروائيّ اللغة هُنا داخل المكان ( **المقهى** ), وجَعلها تتدفق بفيضِ الذّكريات التي انهالت على الشخصيّة, وجَعلها وعاء يحمل عناصر السّرد, وكانتْ لغة مباشرة دون اللجوء إلى الخيال , ولكن اللغة عبَّرت عن أفكار الشخصيّة , وتذكرها لماضيها, وقد استخدم الروائيّ سمة الوصف للمكان الذي احتضن حبه م ا معاً, فكأنَّ المكان بات هُنا مخزوناً لذكريات الشخصيّة والمعبِّر عن حالها . وفي ذلك تأكيد على

---

1 – رواية صورة بدوي ميت, ص24.

2 – رواية صورة بدوي ميت, ص24.

دور اللغة في خلق علاقة بَيْنَ الأماكن وساكنيها فكلاهما يعكس الآخر . لقد حاول السَّالميّ ببساطة لغته أنْ يقنع المتلقي بصدق الوصف والتصوير؛ إذْ يُغْرق في المباشرة والتلقائيَّة, والميل إلى الإخبارِ.

يقول السارد:

"**نزلنا من الباص في ساحة واسعة تتوسطها حديقة مهملة, وخلافاً لما كنت أتوقعه, طلب مني ألا أتركه وحيداً في متاهة الليل . أتذكر جيداً عباراته** " [(1)] في المشهد السابق, جعل السَّالميّ القارئ يندمج في صميمِ ذلك المشهد , وببساطه لغته جَعَلَ المشهد أكثر بساطةً, وأقرب إلى أنْ يُقنع القارئ بصد ق ما يصف, وجعل السّرد المنقول على لسان الراوي (بضمير المُخبر عن نفسِهِ ), وهذا الأسلوب التقليدي الذي يستتر وراءه الروائيّ ليمرر أفكاره للمتلقي, قد يكونُ الأَنْسَبَ له؛ لأنَّه إنّما ينشغل بتمرير الخبر الحامل للفكرة. أرى أنَّ الحوار في جميع الروايات الخمس هو حوار مبسط قريب من المستوى الفكري, والثقافي والاجتماعي للشخصيّات, فلم يكنْ يحمل أفكاراً فَوْق ثقافة الشخصيّات.

يقدِّم الراوي حواراً بَيْنَ عبدالله وزوجته في أسرار عبدالله, يكشف عن البساطة والعفوية, كما يكّشف عن الأفكار الريّفية الخالية من التعقيد, يقول:

" **تشعرين بالوجع ؟** – آ...

**عليك بالبصل.** – **البصل ؟**

آ ..**البصل.. خذي قشرة بصل. سخنيها, وضعيها على لثّتك**"[(2)].

**أمّا اللغة الشعبية** , فإنَّ كلّ لغة في الرواية " هي وجهة نظر, هي أفق اجتماعي, أيديولوجي, لمجموعة اجتماعية فعلية, ومُ مثِّليها المجسّدين " [(3)], إنَّ أي لغة تعبر عن نماذج شعبيَّة على اختلاف لهجاتها, فاللغة الشعبيَّة أو ما يسمى اللهجة المحكية في الحياة اليومية تَرِدُ في الروايات للتعبير عن أفكار الشخصيّات وحالها ووضعها

---

1 – رواية أسرار عبدالله, ص29.

1– رواية أسرار عبدالله, ص 115 –116.

1– باختين, ميخائيل, الكلمة في الرواية, ترجمة يوسف حلاق, ط 1, وزارة الثقافة, دمشق, 1988م, ص242.

الاجتماعي , فتكون أقرب للمتلقي, وتجعل هـ يتصور تلك الأحداث على أنَّها حقيقية خاصة عندما تكون هذه اللغة لسكّان مكان ما . فتعكس الواقع على الشكل الذي يريده الكاتب.

ينقل الراوي حِوَاراً حَوْل استخدام المفردات الأجنبيَّة, والفُصْحى, فاللغة تَسْتَفِزُّ القارئ سلبيّاً؛ وذلك عندما يقوم هو بالشَّرْح والتفسير, والمفترض – أنْ يترك ذلك للمتلقي, نقرأ:

" أنت جزائري ؟

لا

ليبي إذن..

أدْركتُ على الفور لماذا يعتبرني ليبياً ؛ فقد قلت له منذ حين شكراً بدلاً من مارسي عليك, وفي تونس كل من يستخدم في حديثه كلمات من الفصحى يعتبرونه ليبياً." (1)

يستعمل السَّالميّ لغة التواصل اليومي بكثرة وهي لغة بسيطة متعارف عليها لدرجة أنْ يصبح النصّ خطاباً عادياً وبسيطاً وسهلاً, وفي المقطع السابق تبدو لغة الحوار الخارجي منسجمة مع لغة الشخصيّة, ومستواها الثقافي, والاجتماعي , فقد اعتقد أنَّ (توفيق) ليبي لمجرد أنّه قَالَ شكراً, فهي لغة لا تبتعد مفرداتها عن مستوى الكلام العادي.

وفي رواية جبل العَنْز يُقدِّم لنا الحِوَار ببساطة وعفوية تقترب من الروح الشعبيَّة:

**" عاد التَّجر إلى مكانه وهو يقول بلهجة متبرمة :**

**التجارة أصبحت خسارة.**

**قلتُ وأنا لا أزال أراقب الطفل.**

**لماذا ؟**

**لماذا؟ ..لأنَّه لا أحد يدفع.** " (2)

إنَّ هذا الحوار البَسِيْط يجعل من السَّرد إعادة صياغة للواقع اليومي الذي تعيشه الأماكن التونسيّة؛ أي أنَّ الحِوَار يعكس الأبعاد الاجتماعيَّة. وقريباً من هذا الموضوع

---

1 – رواية نساء البساتين, ص87.

2 – رواية جبل العَنْز, ص55.

يقول محمد حسن عبدالله: " إنَّ تحديد الإطار الاجتماعي للقرية من خلال اللغة, وفي جوانبه, كأحاديث الناس, ومشاحناتهم, وأساليب أعمالهم " [1] يُعدُّ من ملامح الواقعية, فقد جَعلت اللغة ببساطتها, المكان مشاركاً فاعلاً في تقديم حال أهل قرية جبل العَنْز.

لقد شكَّلت المفردات العادية قسماً كبيراً من لغة الروايات المختارة, حَرِصَ السَّالميُّ على أنْ تكون لغته ذات طابع شعبيّ وبسيط وظهر ذلك جلياً في كثير من الحوارات, ومقاطع السرد. يقول البَرْني في رواية" عشَّاق بيَّة":

" الهامل.. يظن أنه بفلوس الغربة يقدر على كل شيء .." [2] يُظْهِرُ المقطع السابق أنَّ السَّالميّ يستحضر بلغته الحياة القروية الريفية التي يتتبع فيها الناس بعضهم البعض, ويصفون حال المغترب بلهجة عامية (هامل) وهي لغة الحياة اليومية التي عكستْ عن طريق الحِوَار حالَ أهل القرية, وثقافتهم.

ويقول البطل في" أسرار عبدالله":

" **يوم السفر كحّلي عينك وامضغي السواك, ولا تنسي أن تتعطري.**

آ ..

**لا تنسي أيضاً أن تُحنّي قدميك ويديك.**

**وبعد تردُّد تسأله خديجة:...ومصطفى ؟...أغسله ؟** " [3] .

يَعْكِسُ الحِوَارُ السَّابق البساطة, والوضوح, والتقريرية المباشرة التي تقترب من اللهجة المحكية أو اللهجة الوسطى, ومهما يَكُن فإنَّ اللغة, مهما كان مستواها تظلُّ خَلَقاً روائيّاً, يَصنع الزمان, كما يرسم المكان ويرصد أبعاده.

" إنَّ المكان الروائيّ بناء لغوي يشيده خيال الروائيّ, والطابع اللفظي فيه يجعله يتضمن كل المشاعر, والتصورات التي تستطيع اللغة أنْ تعبر عنها " [4] وهذا يعني أنَّ جميع عناصر العمل الروائيّ بما فيها المكان هي عبارة عن بناء لغوي بمعنى

---

1- محمد حسن عبدالله, الريف في الرواية العربيَّة, ص91-92.

2 – رواية عشاق بيَّة, ص1028.

3 – رواية أسرار عبدالله, ص204.

4 – موقع الكتروني www.nizwa.com

الكلمة, ومن الطبيعي أنْ تحمل الألفاظ اللغوية المشاعر, والاتجاهات, والتصورات وكلّها تعبر عنها جمالية اللغة.

فاللغة جعلتْ المكان الروائيّ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمكان الحقيقي القابع خارج حدود الرواية فالمكان بصفته عنصراً خلقته اللغة " يمتلئ بالأشياء التي يزخر بها العالم الخارجي " [1], فهو يتفاعل مع الواقع فهو يصيغ التجربة اليوميّة على مستوى اللغة, والسلوك بأنواعه, والقادر على ذلك كله اللغة التي ترسم الجوانب البيئية, وتصور الشخصيّات, وهيئاتها, وحتى أحوالها العاطفية, والنفسية.

## 2.3 جمالية اللغة الموظفة في (الوصف- والسّرد- والحوار)

## (التقنياتُ الفنيةُ) أولاً: الوصف.

لقد استغل الكاتب سلطته اللغوية مبرزاً تلك السلطة في وصف المكان وهو ما يسمى (الوصف) أو(الوقفة), ويصبح الوصف هو الأسلوب الطّاغي على الروايات , فللرواية عبارة عن قصة متخيّلة يسردها الراوي, يستطيع القارئ متابعتها من خلال تقنية الوصف وهي " تقنية تم تزج فيها الصفات, والأشياء الساكنة وغير الممتزجة بأفعال السَّرد المتحركة, وهي كأنّنا أمام قطعة وصفية عن حركة السرد , ونمو الأحداث الروائيّة [2]. فوصف المكان لا يقتصر على إسقاط الصفات عليه أو على بعض متعلقاته بشكل مباشر ؛ إذْ قد يستخدم الروائيّ وصفاً غير مباشر من خلال توظيف الصورة الفنية غير مباشرة.

أمّا عن علاقة الوصف بالسَّرد فإنَّ " السَّرد والوصف عمليتان متماثلتان لكن موضوعهما مختلف, فالسّرد , بوساطة مقطع من الكلمات (التتابع الزمني للخطاب) , يمثل موضوعات متزامنة ومتجاورة في المكان " [3] والوصف هو أسلوب تقديم الأشياء, وخصوصاً المكان, فهو يمثل ثيمة مهمة لدراسة المكان وبالتالي تكون اللغة الموظفة

---

1 - إبراهيم جنداري, الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا, ص1172.

2 - آمنة يوسف, تقنيات السّرد في النظرية والتطبيق, دار الحوار للنشر والتوزيع, سوريا- اللاذقية, 1997م, ص94.

3 - رولان بورنوف وريال اوئيليه, عالم الرواية, ص198.

في الوصف هي التي قذفتْ بنا في الفضاء المكاني أو الزماني, وحتى حركات الشخصيّات.

لقد قامتْ اللغة في روايات السَّالميّ بتقديم المكان وجلاء جوانبه المادية, وكشف دلالاته من خلال التتبع لوصف مفرداته فقد أظهرت شعرية اللغة جماليات المكان الروائيّ وعلاقاته بالشخصيّات, وبيَّنت الأثر الإنساني في تشكيل المكان على وفق أهوائه ونفسيته.

و السَّالميّ انتقائيٌّ فيختار ويركز على جوانب محددة في الشخصية وفي المقاطع الوصفية التي اختارها وبالتالي فإنَّ" اختراقات آلية الانتقاء هي التي تُضفي أبعاداً شعرية على المقاطع الوصفية " [1] فالوصف يلعب دوراً كبيراً في تنميق العبارات, وتقديم رؤية عن المكان وتأثيره وتأثّره ببقية العناصرِ الخارجيّة مثل المجتمع الذي تنتمي إليه شخوص الرواية, وإلى انتمائه إلى بقية عناصر الفضاء الروائي . ويرى باحِثون أنَّ الشعرية لا تقتصر على شعرية اللغة حَسْبُ, وإنّما هي القوانين العامَّة التي تُشكّلُ الخطابات الأدبيَّة؛ لذلك فإنَّ " شعرية الرواية ليست قاصرة على المعجم الشّعري, وآليات الاستعارة, والمجاز و خَرْق دلالات لغة التواصل و صولاً إلى لغة الإيحاء, والإيقاع فحسب, ولكن الشعرية الما ثلة تكمن في جوهر الرواية " [2], وكذلك في قيمة الدور الذي تُؤدّيه المقاطع الوصفية التي تستقر في جوهر الرواية, وهي التي تقدم رؤية وتصور لنا العالم الروائيّ على أنَّه عالم حقيقي بكل أبعاده.

**وظائف الوصف.**

يجب أنْ يُنظر " للصورة المكانية في الرواية- أي تجسيد المكان- لا على أنَّها تشكيل للأشكال, والألوان فحسب ولكن على أنَّها تشكيل بجمع مظاهر المحسوسات من أصوات وروائح وأشكال وظلال ومعلومات " [3] وبالتالي فإنَّ تحديد شكل المكان لها مدلولات , وهو ما يبينه الوصف بوظائفه المتعدِّدة فالوصف يكشف عن الحياة

---

1 - خالد حسين, شعرية المكان, ص133.

2 - ساندي سالم, الرواية العربيَّة وإشكالية التصنيف, دار الشروق- عمان, ط 1, 2008م, ص270.

3 - سيزا قاسم, البناء الروائي, ص1107.

النفسيّة للشخصيّة وطبائعها, و يوهم بواقعية الأحداث وهذا ما ستظهر هالدّراسة إنْ شاء الله قدر المستطاع .

ولا أجدُ حَرجاً في تبني منهج سي زا قاسم في وصف المكان, وتقسيمها لوظائف الوصف على ثلاثة أقسام وهي:

**1- " وظيفة إيهامية:** وهي الوظيفة التي يؤديها الوصف وخاصة عند الوقوف على التفاصيل الصغيرة ؛ إذْ يُدخل العالم الخارجي بتفاصيله الصغيرة في عالم الرواية, ويشعر القارئ أنَّه يعيش في عالم الرواية " [1], ويدخل القارئ في عالم الرواية المتخيل موهما إياه بواقعية الأحداث وبأن ما يقرأ واقعي وحقيقي, ومثال ذلك من رواية "**عشاق بيَّة**":

"طوالٌ عِرَاضٌ شُقْر..عيونهم خضر تلمع مثل عيون القِطط في الليل.. ووجوهم ؟ صافية..وبيضاء كالحليب..كانوا أقوياء كالبغال" [2] .

لقد استخدم السَّالميّ في المقطع الوصفي السابق اللغة اليومية أو ما يسمى ( باللغة الشعبيَّة) ؛ فقد جاءَت اللغة مناسبة لموقع الشخصيّة, وبيئتها كونها تعيش في عالم الرواية, وثمَّة إيهام بواقعية الأحداث , تلك القصة التي رواها البَرْني عن موقف حدث معه مع الألمان وقد وصفهم بالشقر, ووجوههم بيضاء..الخ, فقد استخدمَ في ذلك الوصف الألوان وهي ( البيضاء- شقراء- خضراء) تكشف عن إمعان في الوصف, والوقوف عند التفاصيل الصغيرة.

إنَّ لتلك الألوان "دلالة وأهمية " مرتبطة في نفسية الأشخاص, فاللون الأخضر يدلُّ ويرمز للطبيعة التي ينتمي إليها الأشخاص وهم هُنا (ألمان) , واللون الأبيض يدلُّ على النظافة, والوضوح فإنَّ الألمان واضحين في تعاملهم , واللون الأشقر أيضاً يدل على الصحة والقوة كون الوجه يكون أبيضَ مع وجود حمرة عليه تدلّ على قوة الدّم, والجسم بشكل عام.

---

1 - انظر سيزا قاسم, بناء الرواية, ص111.

2 - رواية عشاق بيَّة, ص80.

2- **الوظيفة الزّخرفيّة:** وهي وظيفة من وظائف الوصف وهي النظر إلى الوصفِ على أنَّه الزخارف التي تُضَاف إلى المباني. وهي وظيفة جمالية تزينية, مركزاً فيها الروائيّ على الزخارفِ, وهو بمثابة استراحة وسط الأحداث السّردية, وهو وصفٌ خالصٌ.

يقول السّارد في رواية" عشاق بيَّة":

"**يتناهى إليه الأنين ثانية. تسري في أصابعه رعدة خفيفة, ويصبح عاجزاً تماماً عن قمعِ رغبته في النظر...يتحرك البَرْني من مكانه دون أنْ يغيير وضعيته . يسكت محمود قليلاً ثم يضيف بصوت يوحي بأنَّ جسده بدأ يلفظ ما كان يسبب له الأوجاع. الحق أنّ يدي انزلقت فيما لا أدرري كيف وقعت...الخ.**"[1].

لقد اهتم السَّالميّ بوصف المكان, ورصده بدقة, وقد وظف المكان توظيفاً جمالياً زُخرفيّاً, واختار السَّالميّ الكثير من المقاطع الوصفة للمدينة وشوارعها وبيوتها, وهذا يدلّ على ارتباطه بتلك الأماكن, ويدل أيضاً على أنّ الشخصيّة تُعاني من التعب النفسيّ وتريد أنْ تُريح تلك النّفس من خلال انسجامها مع المكان الذي لجأت إليه وهو المكان المفتوح الخارجي وهو (البحر- والشوارع- والأزقة) وفي المقطع السابق صور السالمي الحالة النفسية للشخصيات تحت شجرة" زيتونة الكلب".

أمّا الوظيفة الثالثة للوصف وهي: " **الوظيفة التَّفسيريَّة** " فتذكر؛ لأنّها تَكشف عن حياة الشخصيّة النفسيّة, وتشير إلى مزاجها وطبائعها " [2], وفيها يكون الوصف أيضاً مُبْرزاً ومفسِّراً لبعض الأحداث ولنفسية الشخصية.

نقرأ في "أسرار عبدالله ":" وما يجعله أكثر تعلقاً بهذا المكان هو أنّه باستطاعته أنْ يراقب كل ما يحدث حول خلايا النحل, فهو يحب النحل, وخصوصاً العسل..الخ"[3], إنَّ الوصف السابق لشخصيةِ عبدالله وهو حبه لهذا المكان الذي يوجد فيه خلايا النحل , ويسمى وصفاً **(انتقائيّاً)** فقد اختار الروائيّ الخطوط العريضة في وصفه , ولم يذكرْ كل التفاصيل بل ذكر أهم التفاصيل وفسر ذلك الوصف نفسيّة

---

1 - رواية عشاق بيَّة, ص 46 -47.

2 - انظر, سيزا قاسم, بناء الرواية, ص110-111.

3 - رواية أسرار عبدالله, ص66.

عبدالله التي تحب أنْ تكون منعزلة عن العالم, وتنأى بها خارج حدود الأماكن الضيقة مثل: (البيوت− والأسواق ), ففي ذلك تسليط الضوء لما يحدث للشخصيّة.

وكما تقول سيزا قاسم في كتابها بناء الرواية إنَّ الوصف يقوم على مبدأين هما: الوصف الاستقصائيّ الذي يتم فيه ذكر كل التفاصيل , والوصف الانتقائي [1], الذي يتم فيه ذكر الخطوط العريضة الموحية, وقد استقصى الكاتب الكثير من الأماكن وذكر تفاصيلها مثل وصفِ البيوت والشوارع وغيرها وانتقاؤه لبعض الخطوط المهمة في وصف المكانِ كالمثال السابق في وصفه للمكان الذي يلجأ إليه عبدالله ليبحث عن الراحة والعزلة.

إنَّ المقاطع الوصفية تقوم بجذب السّرد نحو الوقوف, والسكون, على عكس السّرد الذي يدفع بعجلة الأحداث إلى السرعة على وفق قول سيزا القاسم.

إنَّ الوصف يتناول الأشياء, فيرسمها بواسطة (اللغة) وهو عنصر أساسي في الرواية, فهو يصور الأشياء, في المكان, ولكنّه ليس الغا يةَ من الرواية, وإنَّما هو لأجل صنع المكان الروائيّ, فهو تصوير فنّي ليس موضوعيّاً وحقيقياً كما ترى كثيرٌ من الدراسات الروائية. فعن طريق" اللغة, وشفافيتها, وشاعريتها, وكثافتها ودلالاتها يشكِّل الروائيّ الصورة الفنية للمرئيات الموجودة في المكان " [2].

يقول السارد :

"**العمارة قديمة من مخلفات الاستعمار الفرنسي, بابها الخشبي الضخم المفتوح على مصراعيه لم يُدْهَن منذ وقت طويل كان متآكلاً في الأسفل ومتشققاً في عدة مواضع.. وفي أغلب شرفاتها غسيل منشور ..الخ** "[3] يسلطُ السَّالميُّ الأضواءَ على المكان في المقطع الوصفي السابق, ويقدّم بوصفه لوحة بسيطة معبرة , ويلفت انتباه القارئ إلى أنَّ هذا المكان تاريخيّ, ويحمل ذاكرة المكان بأحداثِهِ بكل معنى الكلمة, فهو يُشير إلى أنَّ تونس كانت مستعمرة في يوم من الأيام بسبب فُرقة أهلها. والباب المتآكل يستخدمه السَّالميّ كرمز للتعبير عن الفرقة والضعف التي أصابتْ الشعب التونسي

---

1 − انظر, سيزا قاسم, بناء الرواية, ص5

2 − مهدي عبيدي, جماليات المكان, ص263.

3 − رواية نساء البساتين, ص155.

إبَّان تلك الفترة , ودلّ ذلك على وجود ثغرات استطاع العدو اختراقها من أجلِ احتلال هذا المكان.

إنَّ الوصف قد قدَّم المكان مترابطاً مع سائر عناصر العمل الروائيّ وَجَعل المكان أكثر من كونه إطاراً للأحداث بل ناطِقاً بحال الشخصيَّات, ومعبِّراً عن مشاعرها ورؤيتها.

لَقَدْ كانت لغة الوصف المكاني عند السَّالميّ متعددة الأنماط والأنساق تبعاً للشخصيّات

نطالع في رواية "جبل العَنْز":

"**دَخَلْت جبل العَنْز شاحنةٌ زرقاء , وطافت في الشوارع وزميرها الحادُّ يخترق الصمت كان يقودها رجل بدين يضع على عينيه نظارة سوداء ويضحك كثيراً .الخ**" [1] لقد صَوّر السَّالميّ المكان في المقطع السابق على أنَّه شَاهِدٌ على الأحداث في جبل العَنْز, واعتمد على الصورة البصرية التي تسيطر على الكثير من المقاطع الوصفيّة لدى السَّالميّ ؛ حيث شمل الوصف مشاهدات الراوي في قرية جبل العَنْز , ونقلها بكل تفاصيلها الاستقصائية, وجعل نموذج شخصيّة السائق يحمل صفات مكانيّة وَرَمزَ بذلك وصفه للنظارة بأنّها سوداء, حيث إنَّ هذا اللون السوداويّ يرمز إلى رؤية الراوي السوداويّة للمكان والشخصيّة التي تقطنهُ؛ فيكون بذلك عبَّر عن رؤية الراوي للعالم وهي رؤية مظلمة قاتمة كالمكان.

وفي رواية "عشاق بيَّة" نقرأ:

" **أخذ المولدي يسيرُ في كل الاتجاهات كالمجنون, يغرف التراب ويذريه يقطع النبات ليتأمله, يضرب الأرض بقدميه, يتمدَّدُ على التراب ويصغي , يخطو خطوات واسعة كأنّه يَقيسُ شيئاً ما ..الخ** ." [2]

لقد عبرَ الوصف السابق لحركة الشخصية داخل المكان عن همومها, وحزنها, وجاء الوصف متماشياً مع حالة الشخصية النفسيّة فكان الحُزن يسيطر على الشخصيّة فبدا المكان مشاركاً له فالنباتات وجدت ليتأملها, والتراب ويخفف من وطأة الحزن على

---

1 – رواية جبل العَنْز, ص59.

2 – رواية عشاق بيَّة, ص175.

موت رفيقة, فجعلت اللغة , بجمالها وإيحائها , المكانَ مطوَّعاً للشخصيّة ومشارك اً لها حزنها. "وجعل الوصف المكان يفتح على أماكن كثيرة أخرى, ويعمق الحس الجمالي لدى القارئ بالمكان " [1], فكان الوصف هو أسلوب تقديم المكان بما يحويه من أثاث, وأشخاص تحمل رؤى داخلها " غير أنَّ الوصف هو الأداة الإستراتيجية في إكساب المكان استقلالية ضمن مسار السّرد الروائي, وأدخل القارئ إلى قلب المكان بأشيائهِ وظواهرهِ وتفاصيله " [2].

يَسْتَغرقُ الراوي المخبر عن نَفْسِهِ في" **نساء البساتين** " في الوصف, من خلال تقديم صورة يمتزج فيها الزمن بالأشياء, تماماً كامتزاج البشر بالأمكنة ومفرداتها: المحطّة, الشارع, مركز الشرطة, الحيّ, كُلُّ ذلك مع نَعِيمة والسَّارد, والكلاب الضخمة- في سَرْد مُقْتضب, لكنَّه مُحمَّلٌ بالأحداث والأشياء.

"نعيمة واقفة في محطة الحافلات, وأنا خلفها, لا أحد سوانا في المحطّة, الشارع مقفر, لا حافلات ولا سيارات ولا در اجات, حتى مركز الشرطة كان مُغلقاً وبعيداً في الجزء الشعبي من الحي ثلاث ة كلاب ضخمة تقعي في وسط الطريق, الحرّ شديد, والمكان غارق في صمت موحش " [3].

" إنَّ اللغة هي مأوى المكان في النص الروائيّ على عكس الأمكنة في الأجناس الأخرى : مسرح- موسيقى- فن تشكيلي ..الخ " [4] فاللغة هي الحاضنة للمكان والحاملة لفكره, فقد عبّرت اللغة في المقطع الوصفي السابق عن العالم, والواقع, والحياة, وعكست طبيعة البيئة التي تقطنها الشخصيّة فلم يكنْ الوصف تعبيراً عن الانتقائيّة بل كان استقصائياً ومتتبعاً لحركة الشخصية وواصفاً المكان بكل دقة, فغدا المكان يقدّم نفسَه كأنّه لغة مستقلة بحد ذاتها, وهذا يعود إلى قدرة الروائيّ.

ي صور الوصف المكان بالضيق المظلم, وهي صورة تحمل في طياتها قساوة المكان, وشدة تسلطه على الشخصية, وفي مواقع كثيرة يُعبِّر المكان معاناة الشَخصيَّات

---

1 - انظرْ خالد حسين, شعرية المكان الروائيّ, ص120.

2 - حسين, شعرية المكان الروائيّ, ص120.

3 - رواية نساء البساتين, ص171.

4 - خالد حسين, شعرية المكان, ص78.

وآلامها بشيءٍ من المباشرة, التي تكشف بساطة الشخصيَّة, ففي رواية" عشاق بيَّة" يخبرنا السارد:

"الألمان صعاب سيحبسونه في مكان ضيق مظلم..وحتى يقروه ويجعلوه يعّترف بذنبه سيضربونه بالكهرباء..الخ"[1].

يظهر المكان المظلم على أنه يحمل فكر الألمان المظلم والظالم , حتى أنّ المكان يضيق بالحالة التي وصلت إليها الشخصيَّة من العزلة والشعور بالظلمِ الذي يلف المكان, فقد نقل الوصف التفاصيل " الواقعية للشخصيّة والأشياء التي ترتبط بها, على الرغم من أنّ المكان في الحقيقة غير واقعي إنّما هو مكان لُغويّ يؤدي وظيفة فنية, ودلالة نفسية, ويحمل إيحاءات "[2] إنَّ ما يتم " التعبير عنه قد يكون إمّا ساكناً أو موضوعاً لوصف, وإمّا متحركاً وموضوعاً لسرد "[3] وهذا ما يدل على امتزاج السّرد الذي يحرّكِ الأحداث مع الوصف الذي يُشكِّل الأحداث ويتجه بها مَنْحىً آخر لوظائف أسلفتْ الدّراسَة ذكرها.

إنّ لغة الوصف عند السَّالميّ هي : لغة سلسة, عفوية, تنبض بالحيوية والتّدفق , وهي لغة تحمل فِكْر السَّالميّ ؛ لذا لابُدَّ من تأويل " الأحداث والمكان, والمقاطع الوصفيّة لذلك المكان, والتأويل في أدق معانيه اللغوية في العمل الأدبيّ يأتي من خلال التحليل وإعادة صياغة المفردات, والتراكيب ومن خلال التعليق على النص"[4] فمهما كانت اللغة التي تحمل النص الأدبي بما فيه الرواية فلا بُدّ من تأويل تلك النصوص والتعليق عليها؛ لذلك فإن لغة السالميّ, على الرغم من بساطتها , تحتاج إلى تأويل حتى تتضح الجوانب والحدود التي رسمها في وصف المكان.

---

1 – رواية عشاق بيَّة, ص213.

2 – عبد الحميد المحادين, جدلية المكان والزمان والإنسان, ص129.

3 – أ.أ مندلا, الزمن والرواية, ترجمة بكر عباس, دار صادر – بيروت, د ط.د.ت, ص29.

4 – ميجان الرويلي وسعد البازعي, دليل الناقد الأدبي, المركز الثقافي العربي, الدار البيضاء, ط2, 2000م, ص47.

فاللغة هي تركيب وألفاظ " يَدْخل تركيب معين يشكّل في النهاية النص بكليته كما يشكل الجملة التي يتضمنها النص " [1], فاللغة هي تراكيب وكلمات تشكِّل النصّ الروائيّ بكليته, لكنّها تحمل ثقافة الروائيّ وأفكاره واتجاهاته الأسلوبيَّة, فهي تحتاج إلى نظر؛ لأنَّها تنقل أثر المبدع فالروائيّ لا يصف المكان لمجرد الوصف فحسب, بل لا بد من وجود موضوع وهدف من ذلك الوصف . الوصف يكون متنوعاً ويحمل دلالات وأحوال نفسية واجتماعية للمكان الموصوف.

إنَّ المكان الروائيّ يعد ركيزة أساسية للعمل الأدبي , وهو (( في الرواية ليس هو المكان الطبيعيّ أو الموضوعي, وإنّما هو مكان يخلقه, ويصوره, ويبدعه خيال المؤلف عن طريق الكلمات ويجعل منه شيئاً حقيقياً بخياله.)) [2]

إنَّ المكان في النص الروائيّ مكان متخيل وبناء لغوي فهو جزء من هندسة الرواية وليس مظهراً ثانويا " تقيمه الكلمات انصياعيّاً لأغراض التخيل, وحاجته, فالمكان إذاً نتاج مجموعة من الأساليب اللغوية المختلفة في النص التي تصور وتصف كل شيء داخل المكان " [3].

وما يميّز اللغة هو رمزيتها, وحملها لدلالات متعددة, وتكون ثرية بالمعنى الذي تحمله وتقوم على صور بيانية وانزياحات متعددة وسوف تتناول الدّراسة ذلك في موضوع الانزياح في الرواية.

**ثانياً: الحِوَار.**

يُعد الحوار من أهم الأساليب التقنية التي تُقدِّم الشخصيّات وتعكس ثقافتها وثقافة المكان الذي تنتمي إليه فهي " تُعْدُّ نمطاً من أنماط التعبير الفني, وعنصراً هاماً يشترك

---

1 – عز الدين إسماعيل, الأسس الجمالية في النقد الأدبي, دار الشؤون الثقافية العامة, 1956م, ط3, ص117.

2 – بدرية عثمان, بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ, ط 1, دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع, 1986م, ص94.

3– مصطفى الضبع, إستراتيجية المكان, القاهرة– الهيئة العامة لقصر الثقافة, 1998م, ص151.

مع السرد والوصف في بناء النص الروائيّ " [1] وكما تَمَّ الذكر آنفاً فإنَّ الحِوَارَ يقسم إلى قسمين وهما:

1-الحِوار الداخلي **(منولوج)** وهو أنْ تجرد الشخصيّة من ذاتها شخصاً آخر وتخاطبه أو ما يسمى بحديث النفس إلى النفس.

2-الحِوَار الخارجي ( **ديالوج** ) وهو مخاطبة الشخص لشخص آخر أو أكثر من شخص. إنَّ الحوار في الرواية عالم قائم بحد ذاته, ويعتمد ذلك على مقدرة الروائيّ في إدارة الحوار بين الشخصيات المختلفة في مكان مختلف داخل النص الروائيّ والحوار بنوعيه يعتمد على لغة المتحاورين, وثقافتهم وطريقة تناولهم لموضوع الحوار, وللحوار وظائف كثيرة يؤديها داخل النص الروائيّ , ويمكن الاستنتاج من المرجعيَّات المختلفة هذه الوظائف على النَّحْو الآتي:

1-يكشف عن الحالة الحضارية.

2-يحل قضية معينة.

3-يكشف عن الوضع الاجتماعي.

4-يكشف عن نفسيّات المتحاورين, ونظرتهم إلى بعضهم البعض.

5-يسلط الضوء على البيئات المختلفة.

6-يكشف عن الفكر الذي تتحدث عنه الشخصيات.

7- يكشف عن المستوى الثقافي للمتحاورين.

وتحاول الدّراسة الكشف عن بعض تلك الجوانب وتجلياتها إن شاء الله تعالى.

يُعْدُّ " الحوار عنصراً فنياً مؤثراً يُستخدم ما أمكن اللغة السليمة, وإلا فإنّه يتم بكلمات عامية أو عربيَّة مطوّعة تقع بين السليمة والعامية, وفي ذلك إشاعة الجو الواقعي للشخوص والسّرد"[2].

والحِوَار "يبدو أحياناً معبراً عن شخصيّة المؤلف أكثر عن تعبيره عن شخصية قائله"[1]. يقول الراوي المُخْبر عن نَفْسِهِ:

---

1 – هيام شعبان, السرد الروائي, ص12.

2 – عمر عبد الرحمن الساريسي, مقالات في الأدب الإسلامي, ص124.

**" أسأله وأنا أتطلَّع إلى الساعة المعلقة على الحائط:**

**ماذا تفعل هنا ؟**

**اليوم الجمعة.. ويوم الجمعة يتركوننا نخرج قبل الوقت..ولماذا ؟**

**تقول يُسْرى بشيء من الاستغراب : لا تعرف لماذا؟ ..للذهاب إلى الجامع"**[2].

لقد استعمل السَّالميّ لغة الحوار هُنَا للكشف عن الملامح الفكرية لشخصية توفيق, والنقيض لها شخصية يسرى فكانت اللغة تحمل ثقافة يُسْرى, وفكرها فهي تحمل فكراً إسلاميَّاً, على النقيض منها شخصية الأستاذ توفيق, فشخصيّته تحمل الفكر الغربي؛ لأنَّه عاش زمناً طويلاً في الغرب, ويمكث طويلاً وهو لم يعدْ إلى تونس, فهو مثل الكفار وثقافته غريبة , لا يعرفون أنَّ يوم الجمعة له دلالاته عند المسلمين, فهو عيدهم الأسبوعي وبذلك يكون الحوار بتلك اللغة الحاملة لدلالات عميقة عن الفرق بين الثقافة العربيَّة والثقافة الغربيَّة, وما بينهما. وفي عُشّاق بيَّة نقرأ الحوار التالي:

**" تذكر كلاب البَرْني ؟**

آ ...

**كلها – لا**

**أنا أذكر ثلاثة أو أربعة..واحد كان كبيراً كأنه جحش..**

**في المكان أين دفنته؟ – أين**

**في المكان الذي تجلس فيه الآن"**[3].

لقد جعلت اللغة الحوار يبدو كأنّه حَدَثٌ مَرْئيٌّ أمامنا, يقع بدقته, وتفاصيله, ويحدد تلك الصورة و يَجْعَلُهَا واضحة للعيان, ومبرزة لمستويات التفكير وطرائقها عند الشخصيّات, فكشف الحوار عن فكر الشخصيّات البالية الحاملة للماضي بكل تفاصيله, كما كشف عن نظرة الإنسان للمكان, وعلى ما يبدو أنَّ تسمية زيتونة الكلب , المكان المحوري في الرواية مأخوذة من هذا الحَدَث وهو دفن الكلب الذي يشبه

---

1 – إبراهيم السعافين, نشأة الرواية والمسرحية في فلسطين, دار الفكر, عمان– الأردن, د.ت, دط, ص161.

2 – رواية نساء البساتين, ص 15–16.

3 – رواية عشاق بيَّة, ص220 –221.

الجحش كما يقول البَرْني ويكون بذلك للمكان ذاكرة خاصة مرتبطة بأحداث قديمة . وامتازت لغة الحوار بالسهولة, والمباشرة مع استخدام لفظة (جحش) وذلك يدلّ على أنَّ لغة الشخصيّات مُسْتمدّة من البيئة التي تنتمي إليها.

وينقل الراوي في رواية أُخرى الحوار الآتي:

" قال:

–جئت

–بقيت صامتاً فأضاف بلهجة أحسست أنها تنطوي على سُخرية, خفيفة: توقعت مجيئك..

–حدقتُ إلى عينيهِ, وتلمست السكين كما لو أنّني أريدُ أنْ أتأكد أنه لا يزال في جيبي– أعرف أنك لا تحب الاحتفالات..الخ ." [1]

لقد كشف الحوار الذي دار بَيْنَ إسماعيل والمعلم في هذا الفضاء المكاني, عن لغة فصيحة جاءت مناسبة لثقافة الشخصية؛ كونه يعمل مدرساً مثل: ( أحسستُ– تنطوي– سُخرية– حدَّقتُ– تلمستُ ) فهي ألفاظ تدل على أنّ الشخصيّة ذات مكانة وعلم, كما كشف ذلك الحوار عن فكر الشخصية الانتقامي, فهما يحاولان أنْ ينتقم كلّ من الآخر وكل ذلك كشف عنه الحوار بلغته المتأنّقة وبنائها الرّصين, وكشف أيضاً عن نفسيّات المتحاورين, فكان من المفترض أنَّ المعلِّمَ يحمل فكراً على عكس ما ظهر في الحوار , وكأنَّ البيئة شكَّلته على وفق هواها , بفكرها الانتقامي والفكر الضيق , ضِمْنَ السياق الروائيّ.

يقول عبدالله مخاطباً زوجته:

" – ماذا تحكي النساء عني في البئر ؟

– النساء؟ ..لاشيء.. لا شيء

– لا شيء

– آ..لاشيء..بعد صمتمضطّرب :

– لاشيء..أمامي لا أحد يقول عنك شيئاً, والمرأة التي تقول عنك كلمة أمرغ رأسها في التراب, وأرفسها " [1]

---

1 – رواية جبل العَنْز, ص166.

إنَّ الحوار السابق يكشف عن الحالة النفسية لعبدالله, كونه شخصية تعاني من عقدة النّقْص وتحب أنْ تعرف ماذا يقول عنها الناس, ويكشف الحوار أيضاً عن طبيعة المجتمع الريفي الذي ظهر متصارعاً في أحيان كثيرة, وكذلك الصراع الداخلي مع النفس, فكأنَّ الحوار هُنا يقدِّم المكان ويمهّد له مبرزاً تأثيره على الشخصية, وتأثيرها بالتالي على غيرها, وكل ذلك أبرزته اللغة الواضحة التي تشبه لغة الناس العاديين.

وخلافاً لهذه اللغة المحكيَّة في الحوار, يطالِعُنَا حوارٌ آخر في رواية "صورة بدوي ميت" منقولا من خلال الراوي:

" **كل ما يجب أنْ تفعله هو أنْ تثق بنفسك وأن تتغلب على اليأس**

**- قاطعني بصوت مرتفع :**

**-لا أستطيع أن أعيش في باريس..لا أستطيع أن أعيش إلا في بلدي..**

**-أدهشني ما قاله- لماذا غادرت تونس إذاً ؟**

**-غادرتها مرغماً ..مرغماً..ماذا تقْصُدُ ؟**

**-ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة.**" [2] .

تكشف لنا لغة الحوار في المقطع السابق عن دور المكان في صنع معاناة الإنسان وتحديد مصيره, فاللغة جاءت حاملة لكلمات الحنين إلى الوطن, والشّوق, والانتماء لدى الشخصية فهي تعاني من وطأة الغربة التي ترزح تحت أعماقها, وعبَّرت لغة الحوار بقدرتها التشكيلية عن تصوير شدة تَعلُّق الشخصيّة بالمكان, وارتباطها به , على الرغم من أنَّ هذا المكان سبب لها ألماً. اللغةُ هُنَا تُقدِّم رؤيةً عن المكان الأليف , وهو (تونس) الذي تحوَّل بالفعل الإنسانيّ إلى مكان معادٍ للشخصية , وهذا يدل على شدة تأثير الشخصية في المكان, وتشكيلها له على وفق حالتها النفسية.

إنَّ المكان الروائيّ لا يعيش بمعزل عن باقي عناصر الرواية, وإنّما يدخل في علاقة تفاعل مع المكونات الحكائيّة للسرد, كالشخصيات, والزمان, والأحداث, والرؤى السردية " فمن دراسته ضمن هذه العلاقات المتشابكة وعندما نتكلم عن الحوار فإنّنا

---

1- رواية أسرار عبدالله, ص253.

2 - رواية صورة بدوي ميت, ص121.

نتكلم عن (لغة– وشخصية– وحدث– ومكان) [1]. فلا حوار خارج المكان سواء أكان هذا المكان مفتوح اً أم مغلقاً, معادياً أم أليفاً, ثابتاً أو متحرِّكاً وخلاصة القول (( إنَّ المشهد الحواري عند السَّالميّ يعدُّ من العناصر العامة في نصه الروائيّ, وقد نهض بدورٍ مهم في تقديم المكان , وفي استغوار أعماق وعي الذّات, ورصد معاناة الشخصيات )) [2].

فالحِوَار عند السَّالميّ تميَّز بكونه يحمل فكر الشخصيات ويكشف عن بيئتها ويرصد المكان, ولا بد أن للغة الحوار دورها الأكبر في إيصال الرسالة؛ لأنَّها أظهرتْ الكثير من الرؤى داخل الحوار الذي يسْبُرُ أغوارَ المكان و يكشف عن مكنوناتها ودلالتها العميقة, لقَدْ أفلح السَّالميّ بالمزاوجة بين السّرد والحوار, والوصف مركزاً على الحوار الخارجي أكثر من الداخلي ؛ لأنَّ في الحوار الخارجي رؤية تقدّم أو مشكلة تُناقش ويُمهَّد لحلِّها, وقد مارس السَّالميّ لغته مبرزاً تلك المقدرة والسلطة التي تجلتْ في (الوصف ) أو (الوقفة) بأنواعها الجمالية, والتفسيرية والإيهامية التي قدّمتْ المكان وَجَلتْ الجوانب المظلمة فيه ورسمتها. أسعفتْ اللغة بتلقائيتها ومباشرتها السَّالميَّ في الهيمنة على نصوصه الروائيّة فقد كانتْ لغةً, وصفية, وسردية, وشعريَّة إلى حدٍّ ما, فصنعتْ للمكان جماليّة وأبعاداً, ودلالات مجازية.

---

1 – موقع الكتروني www.nizwa.com.

2 – هيام شعبان, السرد الروائي في أعمال إبراهيم نصر الله, ص235.

**الخاتمة:**

تناولت هذه الدّراسة لمكان الروائيّ وجمالياته عند الروائيّ التونسي الحبيب السَّالميّ في الروايات الخمس المختارة, فقد جلت الدراسة جوانب هامة في الروايات ومن تلك الجوانب دلالة المكان المغلق والمفتوح,فقد قلب السَّالميّ الرؤيا من خلال هذين المكانين, فالمكان المفتوح عنده في حالات كثيرة يشي بالجمود والانغلاق وعدم التطور على عكس المتوقع, ففي رواية أسرار عبدالله كان المكان المفتوح رديفاً للمُغْلق, وكان عدوَّاً للإنسان وكذلك المكان المُغلق وهو (البيت والغرفة) ظهرت بشكل معادٍ للإنسان, أمَّا مادة رواياته فهو يختارها من مفردات الحياة الاجتماعية, راصداً العادات, والتقاليد والقيم, ومحللاً لنفسيات الشخصيّات وكل ذلك كان بالاعتماد على المكان وقد حول السَّالميّ علاقة الإنسان بالمكان من صامتة إلى حيّة, من خلال خلق المواقف والشخصيّات والأمكنة والنزوع إلى الخيال الأقرب إلى الواقع.

ظهر المكان في بعض الروايات على أنَّه الوطن ففي رواية (( عشاق بيَّة)) مثلاً كان المكان بمثابة وطن يضم الشخصيّات ويحويها ولا يمكنها النزوع إلى خارجه, والتصق الإنسان بمكانه وتعلَّق به على الرغم من أنَّه حاول الخروج عن تلك الأماكن إلى عالم آخر مثل السَّفر إلى فرنسا, فبقيت اختراقات المكان الأولى غائرة في أعماق الإنسان وفي ذلك رمزية للوطن الذي مهما حاولت الخروج منه والبحث عن عالم مغاير إلا أنَّه لا يمكنك فك أسْرَه منه مما خلق علاقة اندماج بَيْنَ المكان والبشر في بعض الأحيان, فثمة ارتباط وثيق فيما بينهما, فالمكان هو الحاضن للذكريات, والصبا, فيعاملها البشر على ضوء تلك التعلّقات معاملة حب, وحنان, وتعلق, ومثلتْ شخصية ((صالح محفوظ)) في رواية ((صورة بدوي ميت)) أنموذجاً خاصّاً لتعلق الإنسان بوطنه وأرضه الريفية البسيطة على الرغم من مكوثه الطويل في فرنسا, إلّا أنَّ منظومة القيم التي حفرها المكان في داخله بقيت راسخة, وأبى إلّا أنْ يموت في وطنه وفي قريته النائية (الهوارب), ويعول السَّالميّ في جلائه للعلاقة بَيْنَ الإنسانِ والمكان في علاقتهما التبادلية على الصور الوصفية, والسّردية التي تكشف القناع عن ملامح تلك العلاقة التأثيرية والتأثُّرية.

يتكأ السَّالميّ على (( **الوصف** )) بصوره, ووظائفه الثلاث (التجميلية- التفسيرية- والإيهامية) محاولاً رسم صورة حية للمكان من خلال رصد حدوده, وحيثياته, وكانتْ تلك الصور, صور حيوية فاعلة متحركة ممزوجة في بعض الأحيان بالصور السّردية. لقد أَنْسَن السَّالميّ المكان وجعله مشاركاً للبَشر, يشعر معهم ويفرح بفرحهم ويحزن لحزنهم, وكان بمثابة أداة طيعة لرغباتهم وشهواتهم ونفسيّاتهم, وهذا يَدُلُّ على أثر المكان في بناء الشخصيات, واستطاع تقديم رؤية من خلال المكان, فكشف المكان عن العلاقات, وكشف عن فكر الشخصيات وآمالها وتطلعاتها, كما أنَّه كشف عن التناقضات التي يعيشها بعض ساكنيها, ويكشف عن مستوى العيش لها.

إنَّ الجانب الفني كان حاضراً خاصة اللغة الشعرية التي ساهمت في تقديم المكان وجلاء جوانبه المادية وكشف دلالاته من خلال (الحوار- التناصات- والانزياحات- السرد) ولم يكنْ ((**الوصف**)) خاصاً للمكان إنّما وصف السَّالميّ أحداثاً, وأحوالاً, وأفكاراً, ووصف شخصيات وهذا يدل على تميز الوصف عنده, وكان يلجأ إلى البعد الحضاري للمكان من خلال عقد مقارنات بين المكان التونسيّ الذي انتقلت إليه الشخصيّات, وبين المكان الغربي لا سيما فرنسا, حيث إنَّه جعل الذات الغربيَّة متزنة وغير متناقضة مثل الذات العربيَّة لاسيما التونسية, وصور المكان الروائيّ بصورة أقرب إلى الواقعية من خلال ذكر أسماء أماكن حقيقية حيث إنَّ ذكرها جعل رواياته أقرب للقارئ مع اللجوء إلى المسحة الخيالية التي تميز العمل الروائيّ عن الواقع. قد اتكأ المعجم المكانيّ عند السَّالميّ على تكرار الكثير من الأمكنة في معظم الروايات المختارة, ومن خلال هذا التكرار قدَّم رؤيا وهي التأكيد على حقيقة هذه الأمكنة وتأثيره بها, وتطلعه إلى تغييرها.

وفي النهاية تبقى هذه الدّراسة مفتوحة وأحكامها غير نهائية قابلة لتعدد الاحتمالات كمثل الكثير من النصوص الأدبيَّة القابلة للتأويل بأكثر من جانب, فإنْ وُفّقت في إنجاز هذا البحث فمن الله وحده, وإنْ قَصَّرت نفسي, وأرجو أنْ يكون عُذري في تقصيري أنَّني قدَّمت جهدي.

## المصادر والمراجع


السَّالميّ, الحبيب, (2005), **أسرار عبدالله**, دار الآداب للنشر والتوزيع, الطبعة الأولى, , بيروت– لبنان.

السَّالميّ, الحبيب, ( 1988م), **جبل العنز** , المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر, الطبعة الأولى, بيروت.

السَّالميّ, الحبيب, ( 1990), **صورة بدوي ميت,** المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر, الطبعة الأولى, بيروت.

السَّالميّ, الحبيب, ( 2002), **عشاق بيَّة**, دار الآداب للنشر والتوزيع, الطبعة الأولى, بيروت– لبنان.

السَّالميّ, الحبيب, ( 2010م), **نساء البساتين** , دار الآداب للنشر والتوزيع, الطبعة الأولى, بيروت– لبنان.

ابن منظور, ( 1997م), **لسان العرب**, مج06, دار صادر –بيروت, لبنان, ط1.

أحمد, محمد حسن, (1989م), **الريف في الرواية العربيَّة**, عالم المعرفة, الكويت, د.ط.

أحمد, مرشد, **أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف**, دار الوفاء, د.ط, د.ت.

إسماعيل, عزَّ الدين, ( 1986م), **الأسس الجمالية في النقد العربي** , دار الشؤون الثقافية, العراق– بغداد, الطبعة الثانية.

الأزرعي, سليمان, ( 1985م), **دراسات في القصة والرواية الأردنية** , دار ابن رشد, عمان– الأردن, الطبعة الأولى.

التّواتي, مصطفى, ( 1992م), **جدلية الريف والمدينة في القصة التونسية** , دار محمد علي الحامي, تونس, الطبعة الأولى.

الخضور, جمال الدّين, ( 1995م), **زمن النص**, دار الحصاد للنشر والتوزيع, سوريا– دمشق, الطبعة الأولى.

الخطيبي, عبد الكبير, ( 1–3– 1980م), **في الكتابة والتجربة**, ترجمة محمد بَرادَه, دار العودة, بيروت, الطبعة الأولى.

الدّهمان, أحمد, ( 1983– 1984م ), **مبادئ النقد في نظرية الأدب**, منشورات جامعة البعث, الجمهورية العربيَّة السورية, د.ط.

الدّيب, وئام رشيد عبد الحميد,( 2010م) " **تقنيات السرد في الخطاب الروائي العربي في فلسطين**", تحت إشراف نبيل خالد أبو علي, رسالة ماجستير في الأدب.

الربيع, آمنة, ( 2005), **بنية النص السردي للقصة القصيرة في سلطنة عمان** , المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت, ط1.

الرويلي, ميجان والبازعي سعد, ( 2000م), **دليل الناقد الأدبي**, المركز الثقافي العربي, الدار البيضاء, الطبعة الثانية.

الساريسي, عبد الرحمن, (1996م), **مقالات في الأدب الإسلامي**, دار الفرقان, عمان– الأردن, الطبعة الأولى.

السّعافين, إبراهيم, **نشأة الرواية والمسرحية في فلسطين** , دار الفكر, عمان– الأردن, د.ت, د.ط.

السّيوطي, جلال الدين, ( 2008م), **مقامة الرّياحين**, تحقيق سمير الدروبي, مطبعة السفير, عمان– الأردن, د.ط.

الشّوابكة, محمد, ( 1991م) "دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف", **مجلة أبحاث اليرموك**, مج(9) , 4(2) , أربد.

الشوابكة, محمد, ( 1999) " الإنسان والطبيعة جدلية العلاقة وشعرية الوصف", **مجلة المنارة**, آل البيت, مجلد 4, ع3,

الصّمادي, امتنان عثمان, ( 1995م), **زكريا تامر والقصة القصيرة**, المؤسسة العربيَّة للدراسات, عمان, د.ط.

الضبع, مصطفى, ( 1998م), **إستراتجيةِ المكان**, الهيئة العامة لقصر الثقافة, القاهرة, د.ط.

الطعان, صبحي, ( 1995م), المكان في النص, **مجلة(المعرفة) السورية** , 3784, وزارة الثقافة في الجمهورية العربيَّة السورية.

العيد, يمنى, ( 1998م), **فن الرواية العربيَّة بين خصوصية الحكاية وتمييز الخطاب** , الطبعة الأولى, دار الآداب, بيروت.

القاضي, محمد, (1982), **الأرض في شعر المقاومة الفلسطينية** , الدار العربية للكتاب, ليبيا_تونس.

القواسمة, محمد, ( 1998م), **البنية الروائية في رواية(الأخدود, مدن الملح) لعبد الرحمن منيف**, دار الينابيع للنشر والتوزيع, عمان.

الكركي, خالد, ( 2009م), **الصائح المحكي: صورة المتنبي في الشعر العربي الحديث**, مطبعة السفير, عمان– الأردن, د.ط.

المرزوقي, سمير وشاكر جميل, ( 1986م), **مدخل إلى نظرية القصة** , دار الشؤون الثقافية– بغداد.

المعوّش, سالم, ( 1998م), **صورة الغرب في الرواية العربيَّة**, مؤسسة الرحاب الحديثة, بيروت– لبنان, الطبعة الأولى.

الموسوي, محسن جاسم, ( 1986م), **الرواية العربيَّة النشأة والتحول** , منشورات مكتبة التحرير, بغداد, الطبعة الأولى.

النابلسي, شاكر, ( 1994م), **جماليات المكان في الرواية العربيَّة** , المؤسسة العربيَّة, بيروت, الطبعة الأولى.

النّصير, ياسين, ( 1986): إشكالية المكان في النص الأدبي, دار الشؤون الثقافية العامة " **آفاق عربية**", بغداد, ط1

النصير, ياسين, **الاستهلال**, دار الشؤون الثقافية العامة, العراق– بغداد, د.ط, د.ت.

النعيمي, أحمد, ( 2004م), **إيقاع الزمن في الرواية العربيَّة المعاصرة** , دار الفارس للتوزيع والنشر, الطبعة الأولى, الأردن.

النّوايسة, حكمت, ( 2013م), **جدلية المبني والمعنى في العمل الروائي** , وزارة الثقافة, الطبعة الأولى, عمان.

باختين, ميخائيل, ( 1998م), **الكلمة في الرواية** , ترجمة يوسف حلاق, وزارة الثقافة, دمشق, الطبعة الأولى.

بارت, رولان, ( 1981), **درجة الصفر في الكتابة** , ترجمة: محمد برادة, الشركة العربية للناشرين المتميزين, دار الطليعة, بيروت, ط1.

باشلار, جاستون, (1987), **جماليات المكان**, ترجمة: غالب هلسا, ط3 , بيوت–لبنان, المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

بحراوي, حسن, ( 1999م), **بنية الشكل الروائي : (الفضاء– الزمن– الشخصية)** المركز العربي الثقافي, بيروت, د.ط.

برنس, جيرالد, ( 2003م), **المصطلح السردي**, ترجمة عابد خزندار, المجلس الأعلى الثقافي, د.ط.

بوتور, ميشال, (1971م), **بحوث في الرواية الجديدة**, ترجمة أنطونيوس, مكتبة الفكر الإسلامي منشورات عويدات, بيروت– لبنان, الطبعة الأولى.

بورنوف, رولان, واوئيليه ريال, ( 1991م), **عالم الرواية**, ترجمة نهاد التكرلي, دار الشؤون الثقافية, العراق– بغداد, الطبعة الأولى.

بوطولة, أمينة, (2016م) " **جماليات المكان الدرامي في النص المسرحي الجزائري** ", رسالة ماجستير في الأدب, تحت إشراف الأستاذة الزاوي فتحية, الجمهورية الجزائرية, جامعة وهدان, أحمد بن بلة, كلية الآداب.

جنداري, إبراهيم, ( 2001م), **الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا**, دار الشؤون الثقافية, العراق– بغداد, الطبعة الأولى.

حسين, خالد حسين, ( 2000م), **شعرية المكان في الرواية الجديدة**, مؤسسة اليمامة الصحفية, الرياض, الطبعة الأولى.

حسين, خالد حسين, ( 2007م), **في نظرية العنوان** , دار التكوين للطباعة والنشر, الطبعة الأولى.

حليفي, شعيب (1993)، "إستراتيجية العنوان", **مجلة الكرمل**, ع 46 .

خضر, محمد, ( 1995م), **الحكاية الجديدة**, دار أزمنة للتوزيع والنشر, عمان– الأردن, د.ط.

خليل, إبراهيم, ( 2001م), **جبرا إبراهيم جبرا**, المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر, بيروت, الطبعة الأولى.

سالم, ساندي, ( 2008م), **الرواية العربيَّة وإشكالية التصنيف** , دار الشروق– عمان, الطبعة الأولى.

شعبان, هيام, ( 2004م), **السرد الروائي في أعمال إبراهيم نصر الله** , دار الكندي, أربد– الأردن, د.ط.

صالح, صلاح,( 1997), **قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر** , دار الشرقيات للتوزيع والنشر, القاهرة, الطبعة الأولى.

عبد الجواد, إبراهيم, ( 1997م), **الاتجاهات الأسلوبيَّة في النقد العربي الحديث** , طبع بدعم من وزارة الثقافة, عمان– الأردن, الطبعة الأولى.

عبد الخالق, أحمد, **الشخصية الروائية بين باكثير ونجيب الكيلاني**, دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع, دسوق– مصر, الطبعة الأولى, د.ت.

عبد الرحيم, محمد عبد الرحيم, ( 1990م), **دراسات في الرواية العربيَّة** , دار الحقيقة للإعلام الدولي, طبعة أولى.

عزام, محمد, ( 2005م), **شعرية الخطاب السردي**, منشورات اتحاد الكتاب, دمشق, د.ط.

قاسم, سيزا, (1985م), **بناء الرواية:** دراسة لثلاثية نجيب محفوظ, دار التنوير للطباعة والنشر, بيروت– لبنان, الطبعة الأولى.

قطامي, سمير, ( 2009م), **الحركة الأدبيَّة في شرق الأردن منذ عام 1921 حتى عام1948م**, مطبعة السفير, عمان– الأردن, د.ط.

كرم, يوسف, ( 1986م), **تاريخ الفلسفة الحديثة,** دار المعارف, القاهرة, الطبعة الخامسة.

كوهين, جان, ( 1998م), **بنية اللغة الشعرية,** ترجمة محمد الوالي, دار توبقال, الدار البيضاء, د.ط.

لحمداني, حميد, ( 1993م), **بنية النص السَّردي في منظور النقد الأدبي,** المركز الثقافي العربي, بيروت– الدَّار البيضاء, الطبعة الثانية.

مزهل, صالح محمد حسين, ( 2005م) " **الفضاء القصصي في قصص محمد صالح حيدرة القصيرة**"، رسالة ماجستير في الأدب, إشراف الدكتور محمد علي يحيى عمر.

مصطفى, إبراهيم وآخرون, **المعجم الوسيط**, المكتبة الإسلامية, الجزء الأول, د.ت, د.ط.

مفتاح, محمد, ( 1987م), **دينامية النص**, المركز الثقافي العربي, المغرب, د.ط.

مندلاو, أ.أ., **الزمن والرواية**, ترجمة بكر عباس, دار صادر, بيروت, د.ط, د.ت.

منيف, عبدالرحمن, ( 1994م), **سيرة مدنية** , المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر, بيروت, الطبعة الأولى.

مينه, حنا, ( 1982م), **هواجس في التجربة الروائية** , منشورات دار الآداب, الطبعة الأولى, بيروت.

ناصف, مصطفى, ( 1983م), **الصورة الأدبيَّة**, دار الأندلس, بيروت, الطبعة الثانية.

نجمي, حسن, ( 2000م), **شعرية الفضاء السردي** , المركز الثقافي العربي, الدار البيضاء, الطبعة الأولى.

هلسا, غالب, ( 1984م), **المكان في الرواية العربيَّة**, دار ابن هانئ, دمشق, د.ط.

هوثورن, جيرمي, **مدخل لدراسة الرواية** , ترجمة غازي درويش عطية, دار الشؤون الثقافية العامة, العراق- بغداد, د.ط, د.ت.

.www.kitabt.com

.www.hizwa.com

.www.diwanalarab.com

## المعلومات الشخصية

**الاسم:** سعيد مصطفى القيسي

**الكلية:** الآداب

**التخصص:** اللغة العربية

**العنوان:** الكرك